أمرك[١] ويأتى القرآن الكريم الموحى به من ربّ العالمين على رأس ما يقوله محمّد بن عبد الله صلّى الله عليه وسلّم . وإنّ هذا القول الّذى يجرى على ألسنة اليهود عليهم لعائن الله تعالى يتضمّن السّماع كما يتضمّن العصيان . وإنّ السّماع مرشّح لذكر السّماع بعد ذلك ، وإنّ العصيان مرشّح لصرفهم القول المتعلّق بالسّماع عن معناه القريب الحسن إلى المعنى البعيد السّيّىء ، وذلك فى القول : ﴿ واسمع غير مُسْمَع ﴾ .

لقد كان فى إمكان اليهود الّذين يخاطبون المصطفى صلّى الله عليه وسلّم أن يقفوا عند القول : « واسمع » وقد طلبت منهم الآية الكريمة ذلك كما سيتبيّن ، ولكنّ هذا الوقوف عند القول : « واسمع » والاكتفاء به لا يلبى نداء نفوس هذا الفريق الخبيثة النّكدة ، بل لا بدّ من إعطاء الدّليل العمليّ على تحريف القول عن مواضعه ، وذلك بتحويل معنى الكلام عن وجهته الصّحيحة إلى الوجهة الفاسدة ، وكذلك بتجاوز المعنى المستقيم الطّيّب القريب للقول : «غير مسمع » أى غير مأمور وغير صاغر ، كأنّه قال : غير أن تسمع مأمورًا بذلك[٢] لرفيع منزلتك وجلال شأنك ، إلى المعنى الملتوى الفاسد البعيد ، وذلك على وجه الدّعاء[٣] عليه كقول القائل للرّجل يسبّه : اسمع لا أسمعك الله[٤] ، عن ابن عبّاس : واسمع غير مسمع ، قال : يقولون لك : واسمع لا سمعت[٥] .

ولا يكاد ينقضى عجب الإنسان من التواء فطر القوم حيث إنّهم كما صوّرتهم الآية الكريمة يتحوّلون من صفةٍ سيئةٍ إلى صفة أشدّ سوءًا منها .

(١) تفسير الطّبرىّ ٥/ ٧٥

(٢) تفسير ابن عطيّة ٤/ ٨٨ .

(٣) تفسير ابن عطيّة ٤/ ٨٨ .

(٤) تفسير الطّبرى ٥/ ٧٦ .

(٥) تفسير الطّبرىّ ٥/ ٧٦ .

إنّهم صريحو القول فى إعلان السّماع والعصيان فى القول : ﴿ سمعنا وعصينا ﴾ وقد عرفنا أنّ السّماع مرشّح للسّماع بعده ، وأنّ إعلان العصيان مرشّح للانحراف بالكلام عن صحيح معناه ، وذلك فى القول : ﴿ واسمع غير مُسْمَع ﴾ ويلاحظ أنّ هذا القول الّذى له معنيان متناقضان له صورةٌ واحدةٌ فى النّطق ، والعبرة كما هو معروفٌ بالنّيّة ، وقد عرفنا النّيّة السّيّئة للقوم .

وإنّ هذا القول ذا الصّورة الواحدة وذا المعنيين المتناقضين بناءً على الحسنة أو السّيّئة ، وإنّ هذا القول الّذى يريد اليهود عليهم لعائن اللّه تعالى معناه السّيّىء فى حقّ المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم ، بأن يخترمه الموت ، ويسبق إليه الهلاك ، فلا يسمع شيئًا ، ولا يعى خيرًا ولا شراً ، موطّىءٌ لقول آخر على لسان اليهود عليهم لعائن اللّه تعالى أشدّ سوءًا فى حقّه صلّى اللّه عليه وسلّم . إنّ لهذا القول ما للقول السّابق من معنيين اثنين متناقضين يريد اليهود سيّئهما ، وإنّ له وراء ذلك طريقتين مختلفتين فى النّطق لا يكاد يبين الاختلاف بينهما للدّرجة الّتى يصحّ أن يلتقى المعنيان المتناقضان فى صورة واحدة من النّطق وتذهب النيّة الحسنة بالمعنى ذات اليمين وتذهب النيّة السّيّئة بالمعنى ذات الشّمال . أمّا هذا القول فإنّه كما جاء فى الآية الكريمة : ﴿ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مُسْمَع وراعنا ﴾ وهو يذكّرنا بالمعنى نفسه الّذى نهت عنه الآية الكريمة الرّابعة بعد المائة من سورة البقرة . قال تعالى : ﴿يا أيّها الّذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا . وللكافرين عذابٌ أليم ﴾ .

إنّ للقول راعنا معنيين اثنين مختلفين فى اللّغة العربيّة ، أحدهما حسن والآخر سيّىء .

أمّا المعنى الأوّل الحسن للقول : « راعنا » فإنّه عند العرب . وهو أرْعِنا سمعك وفرّغه لتفهم عنّا[1] وراعنا سمعك وافهم عنّا وأفهمنا[2] ، وأمّا المعنى

(١) تفسير الطّبرىّ ١/ ٣٧٦ .

(٢) تفسير الطّبرىّ ٥/ ٧٦ .

الآخر السّيىء فإنّه عند اليهود عليهم لعائن اللّه تعالى الّذين كانوا يريدون منه فى نفوسهم معنى الرّعونة[١] بمعنى الحُمْق والسَّفَه .

وإنّ للقول راعنا فى لغة اليهود معنىً سيّئًا واحدًا هو الرّعونة ، ولكنّ هذا القول ينطق فى لغة اليهود بانحراف نحو الواو فيقال : راعونا ، يريدون الرّعونة أو الأرعن . والرّعونة الحُمق والاسترخاء . والأرعن الأهوج[٢] وكأنّ اليهود فى خطابهم للمصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم ينطقون القول : « راعنا » كما ينطقه العرب حينما لا يأمنون العواقب ، وينطقون القول : « راعنا » كما ينطقونه فى لغتهم حينما يأمنون العواقب . وفى كلتا الحالين هم يريدون المعنى السّيىء ، وتزيد الحال الأخرى بتجاوزها سوء النّيّة إلى سوء القول أو النّطق .

وكى يصرف القرآن الكريم اليهود عليهم لعائن اللّه تعالى عن سبّ المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم فى هذه الطّريقة اللّئيمة من لحن القول ، يَنْهى الّذين آمنوا عن مخاطبة المصطفى صلّى اللّه عليه بجملة « راعنا » أصلاً رغم إرادة معناها الحسن ، لأنّ فى منع المسلمين من استعمالها بسبب سوء استغلال اليهود لها ، منعًا لليهود عن استعمالها ، وهم الّذين لا يريدون إلاّ معناها السّيىء البعيد فى حقّه صلّى اللّه عليه وسلّم .

جاء فى لسان العرب لابن منظور[٣] : « وقوله تعالى : لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا ، قيل : هى كلمةٌ كانوا يذهبون بها إلى سبّ النّبىّ صلّى اللّه عليه وسلّم ، اشتقّوه من الرّعرنة . قال ثعلب : إنّما نهى اللّه تعالى عن ذلك لأنّ اليهود كانت تقول للنّبىّ صلّى اللّه عليه وسلّم : راعنا أو راعونا ، وهو من كلامهم سبٌّ ، فأنزل اللّه تعالى : لا تقولوا راعنا وقولوا مكانها انْظُرنا .

---

(١) تفسير ابن عطيّة ٤/٨٨ .

(٢) لسان العرب « رعن » .

(٣) « رعن » .

قال ابن سيده : وعندى أنّ فى لغة اليهود راعونا على هذه الصّيغة ، يريدون الرّعونة أو الأرعن » ويقول[١] : « والإرعاء : الإبقاء على أخيك .... وأرْعنى سمعك وراعنى سمعك أى استمع إلىّ . وأرْعَى إليه : استمع . وأرعيت فلانًا سمعى إذا استمعت إلى ما يقول وأصغيت إليه . ويقال : فلانٌ لا يُرْعِى إلى قول أحد أى لا يلتفت إلى أحد . وقوله تعالى : يا أيّها الّذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا ، قال الفرّاء : هو من الإرعاء والمراعاة ، وقال الأخفش : هو فاعلْنا من المراعاة على معنى أَرْعِنا سمعك ولكنّ الياء ذهبت للأمر .... وقال أبو إسحاق : قيل فيه ثلاثة أقوال ، قال بعضهم : معناه أَرْعِنا سمعك . وقيل : أرْعِنا سمعك حتّى نُفْهِمَك وتَفْهَمَ عنّا ، قال : وهى قراءة أهل المدينة ، ويصدّقها قراءة أبىّ بن كعب : لا تقولوا راعونا ، والعرب تقول : أرْعِنا سمعك وراعنا سمعك ... وقيل : كان المسلمون يقولون للنّبىّ صلّى اللّه عليه وسلّم : راعنا ، وكانت اليهود تُسابُّ بهذه الكلمة بينها ، وكانوا يسبّون النّبىّ عليه السّلام ، فى نفوسهم ، فلمّا سمعوا هذه الكلمة اغتنموا أن يظهروا سبّه بلفظ يُسْمَع ولا يلحقهم فى ظاهره شىء ؛ فأظهر اللّه النّبىّ صلّى اللّه عليه وسلّم والمسلمين على ذلك ونَهَى عن الكلمة .... وفى مصحف ابن مسعود رضى اللّه عنه : راعونا .... والمراعاة : المحافظة والإبقاء على الشّىء . والإرعاء : الإبقاء » .

وما معنى القول : ﴿ ليًّا ألسنتهم وطعنًا فى الدّين ﴾ وبم يتعلّق ؟

أصل اللّىّ بمعنى الفتل والميل . يقال : لويته ألويه ليًّا ، ولوى يده ، ولوى رأسه وبرأسه أماله . لوّوا رءوسهم : أمالوها . ولوى لسانه بكذا كنايةٌ عن الكذب وتخرّص الحديث . قال تعالى : يلوون ألسنتهم بالكتاب ، وقال : ليًّا بألسنتهم[٢] عن ابن عبّاس : ليًّا بألسنتهم ، قال : تحريفًا بالكذب[٣] فإنّهم

(١) لسان العرب « رعى » .

(٢) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانىّ « لوى » ٤٥٧ وتفسير القرطبىّ ١٨١٣ وتفسير الطّبرىّ ٥/ ٧٦ .

(٣) تفسير الطّبرىّ ٥/ ٧٦ .

كانوا يستهزئون ويلوون ألسنتهم برسول الله صلّى الله عليه وسلّم ويطعنون فى الدّين(١) .

وفى سبيل تبيين متعلّق هذا القول : ﴿ ليًّا بألسنتهم وطعنًا فى الدّين ﴾ نحن نودّ أن نمرّ سريعًا على معنى الكلام السّابق .

إنّ القول ﴿ سمعنا وعصينا ﴾ قولٌ قائمٌ برأسه ومعناه سمعنا قولك وعصينا أمرك .

وإنّ القول : ﴿ واسمع غير مُسْمَع ﴾ الّذى له صورةٌ واحدةٌ فى النّطق ، له معنيان مختلفان بناءً على النّيّة الحسنة أو السّيّئة للقائل .

وإنّ القول : ﴿ وراعنا ﴾ الّذى له صورتان اثنتان فى النّطق له معنيان اثنان مختلفان ، أحدهما حسنٌ يريده المسلمون ، وهؤلاء ينطقون هذا القول فى صورةٍ واحدةٍ دائمًا ، وآخرهما سيّىء يريده اليهود ، وهؤلاء يرقبون الظّروف وينتهزون الفرص . فإن أمنوا العاقبة جمعوا بين التواء النيّة والتواء القول أو اللّسان فمالوا بالنّطق نحو الواو ﴿ راعونا ﴾ من الرّعونة بمعنى الحُمق وشبه الجنون وإن لم يأمنوا العاقبة اكتفوا بالتواء النّيّة ونطقوا بالقول كما ينطقه المسلمون المستقيمو النّطق والنّيّة .

وهكذا يتبيّن أنّ القول : ﴿ وراعنا ﴾ ينفرد بطواعيته للىّ عنقه نطقًا ومعنى ، كما يتبيّن أنّ القول : ﴿ ليًّا بألسنتهم وطعنًا فى الدّين ﴾ يرتبط بجملة : ﴿ راعنا ﴾ ويترتّب عليها ، إذ المعنى أنّ اليهود عليهم لعائن الله تعالى يسبّون دائمًا المصطفى صلّى الله عليه وسلّم ويتّهمونه بالحمق والجنون ، ويكون ذلك عن طريق لىّ ألسنتهم حينما ينطقون جملة ﴿ راعنا ﴾ وعن طريق لىّ نيّاتهم حينما يريدون المعنى السّيّىء ولا يريدون المعنى الحسن . وحينما يتّهم

(١) تفسير الطّبرىّ ٥/ ٧٦ .

اليهود عليهم لعائن اللّه تعالى المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم بالحمق والرّعونة والجنون ، يكون فى ذلك أكبر الطّعن فى دين الإسلام ، لأنّ العقل أساس التّكليف ، واليهود عليهم لعائن اللّه تعالى يتّهمون المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم فى عقله .

وتضع الآية الكريمة لكلّ قولٍ سّيىءٍ على لسان اليهود بديلاً حسنًا . جاء على لسان اليهود القول : ﴿ سمعنا وعصينا ﴾ والأولى بهم أن يقولوا : ﴿سمعنا وأطعنا ﴾ .

وجاء على لسانهم القول : ﴿ واسمع غير مُسْمَعٍ ﴾ والأولى بهم أن يقولوا : ﴿ سمعنا ﴾ وأن يكتفوا بهذا القول .

وجاء على لسانهم القول : ﴿ وراعنا ﴾ والأولى بهم أن يقولوا ﴿ انظرنا ﴾ نَظَرْتُكُمْ معنيين اثنين . انتظرنا وانظر إلينا (١) واستدلّو على المعنى الأول ببيت الحطيئه (٢) :

وقد نَظَرْتُكُمُ أعشاء صادرةٍ ∴ لِلخمْس طال بها حَوْزى وتَنْساسى

ومعنى البيت أنّ الشّاعر انتظر عطاء من هجاهم كما تنتظر عشاءَها النّياق الصّادرةُ عن الماء وقد ارتوت فى اليوم الخامس من شربها الماء آخر مرّة . والخمس : أن تُعْفى الإبل أربع ليالٍ لا تشرب وترد اليوم الخامس . وتلك النّياق طال بالرّاعى سوقَه لها برفق ، وسوقَه لها بعنف . وإنّ شرب النّياق ماءً كثيرًا يقتضى أن تأكل كثيرًا لذا هى تنتظر بفارغ الصّبر عشاءها ، بل أعشاءها ، هكذا فى صيغة جمع « عشاء » وهكذا كان طمع الشّاعر وقد خاب ظنّه .

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٥/ ٧٧ .

(٢) انظر مثلاً تفسير الطّبرىّ ٥/ ٧٧ وتفسير ابن عطيّة ٤/ ٨٩ وقد اعتمدنا رواية الدّيوان ٢٨٣ الطبعة الأولى ١٣٧٨هـ ١٩٥٨م حلبى تحقيق د . نعمان أمين طه .

سطر جديد
فما معنى القول : ﴿ وانظرنا ﴾ ؟ ذهب العلماء إلى
أن للقول : ﴿ وانظرنا ﴾ معنيين اثنين

واستدلّوا على المعنى الآخر ببيت عبد اللّه بن قيس الرّقيّات[١] :

ظاهرات الجمال والسَّرو ينظر . . . ن كما ينظر الأراكَ الظّباءُ

والسّرو : المروءة والشّرف .

ولمّا كان لحاسّتى السّمع والبصر دورٌ بارز فى الآية الكريمة وكان القول : وانظرنا ؛ بمعنى انظر إلينا ، ذا علاقة بالعين وبحاسّة البصر ، فإنّا نميل إلى كون انظرنا بمعنى انظر إلينا مراعاةً لدور كلٍّ من السّمع والبصر ، الأذن والعين، فى الآية الكريمة . واللّه تعالى أعلم .

إنّ الآية الكريمة تقرّر أن اليهود لو أنّهم بدلاً من أقوالهم الملتوية قالوا ﴿سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرًا لهم ﴾ فى دينهم ودنياهم ﴿وأقوم﴾. وأعدل[٢] وأقرب للاستقامة وأدنى للرّشاد وأليق بالسَّداد ، ولكن لعنهم اللّه تعالى وطردهم من رحمته بسبب كفرهم وجحودهم نعم اللّه تعالى وآلاءه ، وتبديلهم نعمة اللّه تعالى كفرا .

إنّ لعن اليهود كان بسبب كفرهم ، وإنّ كفرهم رشّح للقول الّذى ختمت به الآية الكريمة : ﴿ فلا يؤمنون إلاّ قليلا ﴾ .

وفى مقابل ركوب بنى إسرائيل الشّطط من أمرهم تأمر الآية الكريمة التّالية أهل الكتاب بأن يؤمنوا بالقرآن الكريم وإلاّ لعنهم اللّه تعالى كما لعن أصحاب السّبت فإلى

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٥/ ٧٧ وتفسير ابن عطيّة ٤/ ٩٠ ومعانى القرآن للأخفش ١/ ٢٤٠ وقد اعتمدنا رواية الدّيوان ٨٨ بيروت ١٣٧٨هـ ١٩٥٨م تحقيق وشرح د . محمّد يوسف نجم .

(٢) معانى القرآن للفرّاء ١/ ٢٧٢ .

الآية رقم (٤٧)

قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٤٧) ﴾

تنادى الآية الكريمة أهل الكتاب ، اليهود والنّصارى بعامّة ، اليهود بخاصّة ، وذلك لأنّ الآية الكريمة السّابقة نصّت على اليهود ، وهذه الآية الكريمة نصّت على أهل السّبت وهم من اليهود كذلك ، وتأمرهم بأن يؤمنوا وبألاّ يكفروا بما نزّل اللّه تعالى على المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم من قرآن مجيد مصدّق لما معهم من كتاب ، مهيمن عليها ، مثبّت لما فيها من قصص ، مؤيّد لما فيها من أحكام ، متضمّن لما دقّ فيها من لطائف ، مبيّن لبعض ما أخفاه علماء السّوء منها وعدّوه من أسرار ، منقٍّ لها ممّا تعرّضت له من تحريف وتزوير ودسّ وتأويل .

وتأمر الآية الكريمة أهل الكتاب أن يبادروا إلى تصديق القرآن الكريم وخير الأنام صلّى اللّه عليه وسلّم ، وإلى الدّخول فى دين الإسلام ، من قبل أن يوقع اللّه تعالى بهم أحد عذابين .

العذاب الأوّل أن يطمس اللّه وجوههم ويمحو ما فيها من عيون وحواجب وأنوف وما إلى ذلك ، ويجعلها كالأقفاء لوحًا واحدًا ويردّ تلك الوجوه أدبارًا والأدبار وجوها فإذا مشى الواحد منهم أمامًا بدا وكأنه يمشى القهقرى ، والعياذ باللّه . والمعروف أنّ هذا النّوع من العذاب لم يوقعه اللّه تعالى بالقوم .

والعذاب الآخر أن ينزل اللّه تعالى عليهم لعنته ، ويوقع عليهم غضبه ، ويطردهم من رحمته ، ويحلّ بهم سخطه ، على غرار العذاب الّذى أنزله اللّه

تعالى ببنى إسرائيل سكان بلدة أيْلة على البحر الأحمر الّذى كان يعرف ببحر القُلزُم بين مدين والطّور ، عقابًا لهم على الاحتيال لحبس السّمك يوم السّبت واصطياده بعد ذلك ، وعلى صيد السّمك يوم السّبت وبيعه وأكله . لقد لعن اللّه سبحانه وتعالى المعتدين من سكّان تلك القرية المطلّة على البحر ، ومسخهم قردة خاسئين ذليلين حقيرين ، هلكوا جميعًا بعد ثلاثة أيّام فيما يقال.

لقد جاءت الإشارة إلى أصحاب السّبت فى الآية الكريمة الثالثة والسّتّين بعد المائة من سورة الأعراف . قال تعالى : ﴿ واسألهم عن القرية الّتى كانت حاضرة البحر إذ يَعْدون فى السّبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سَبْتهم شُرَّعًا ويوم لا يَسْبِتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون ﴾ كما جاءت الإشارة إليهم فى الآية الكريمة الخامسة والسّتين من سورة البقرة . قال تعالى : ﴿ ولقد علمتم الّذين اعتدوا منكم فى السّبت فقلنا لهم كونوا قردةً خاسئين ﴾ وإنّ النّصّ على مسخهم قردة جاء كذلك فى الآية الكريمة السّادسة والسّتين بعد المائة من سورة الأعراف . قال تعالى : ﴿ فلمّا عتَوْا عمّا نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردةً خاسئين ﴾ .

وكما لم يوقع اللّه تعالى بالقوم الطّمس رحمة منه جلّ وعلا وفضلاً لم يوقع المسخ . أمّا اللّعن بمعنى الطّرد من رحمة اللّه تعالى فواقعٌ ولازم .

وفى التذييل : ﴿ وكان أمر اللّه مفعولا ﴾ تقرّر الآية الكريمة أنّ أمر اللّه تعالى مفعول . وبما أنّ لفظ الأمر يعبّر عن أرفع مظاهر القدرة والقوّة ، ففى النّصّ عليه نصٌّ على ما دونه وعلى ما يقلّ عن الأمر فى الدّلالة على القدرة والقوّة .

ولمّا كان أهل الكتاب ، وكذلك العرب ، قد تورّطوا فى الشّرك ، وهو الذّنب الّذى لا يغفره اللّه تعالى ، فقد تحدّثت الآية الكريمة التّالية فى هذا الذّنب فإلى :

الآية رقم (٤٨)

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾

تورّط كلٌّ من اليهود والنّصارى والعرب قبل الإسلام فى الإشراك مع اللّه تعالى غيره . جاء فى حقّ اليهود والنّصارى قوله تعالى فى سورة التّوبة[١] : ﴿ وقالت اليهود عزيرٌ ابن اللّه وقالت النّصارى المسيح ابن اللّه ، ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الّذين كفروا من قبل . قاتلهم اللّه أنّى يؤفكون ﴾ وزعم مشركو العرب أنّ الملائكة بنات اللّه ، وما أكثر الإشارات القرآنية إلى هذا الزّعم وإلى ضلال القوم .

وهذه الآية الكريمة من سورة النّساء تقرّر أنّ هنالك ذنبًا واحدًا فقط هو الّذى لا يغفره اللّه تعالى ، ألا وهو الإشراك معه جلّ وعلا سواه . ووراء ذلك يغفر اللّه تعالى ، إن شاء ، ما دون الشّرك من ذنوب أو يعذّب . ومن المعروف أنّ ربّ العزّة إنّما يغفر ذنوب التّائبين الّذين يحقّقون فى توبتهم كلّ شروط التّوبة ، بالإقلاع عن الذّنب ، والنّدم على ارتكابه ، وعدم معاودته ، وتقديم الدّليل العمليّ على التّوبة بعمل الصّالحات .

وبشأن حقوق العباد ينبغى إعادتها إليهم أو الحصول على عفوٍ منهم بشأنها . إنّ هذا الفريق من التّائبين العابدين هم الّذين يشملهم بإذن اللّه تعالى قوله عزّ من قائل[٢] : ﴿ قل يا عبادى الّذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة اللّه إنّ اللّه يغفر الذّنوب جميعًا . إنّه هو الغفور الرّحيم ﴾ وهم الّذين يبدّل اللّه سبحانه وتعالى سيّئاتهم حسنات بفضله جلّ وعلا ومنّه والّذين أشار إليهم قوله تعالى[٣] : ﴿ إلاّ من تاب وآمن وعمل عملاً صالحًا فأولئك

(١) الآية ٣٠ .

(٢) سورة الزّمر ٥٣ .

(٣) سورة الفرقان ٧٠ .

يبدّل اللّه سيّئاتهم حسنات . وكان اللّه غفوراً رحيمًا ﴾ .

وفى التّذييل : ﴿ ومن يشرك باللّه فقد افترى إثمًا عظيمًا ﴾ تقرّرالآية الكريمة أنّ من يشرك باللّه تعالى فى العبادة غيره ، ويصرف العبادة عن اللّه تعالى الذّى يستحقّها هو وحده جلّ وعلا لا شريك له ﴿ فقد افترى إثماً عظيماً﴾ وأتى ذنبًا كبيراً ، وارتكب جرمًا قبيحًا ، وكان بمثابة من أدلى بشهادة الزّور ، لأنّ فى عبادة غير اللّه تعالى ، إدلاءً بشهادة لهذه الآلهة المزعومة أنّها أهلٌ لأن تُعْبَدَ مِنْ دون اللّه تعالى . وأىّ شهادة زورٍ أبعد من هذه الشّهادة ، وأخطر من هذه الشّهادة . إنّ هذا المشرك يجعل للآلهة المزعومة حقّاً فى أن تعبد من دون اللّه تعالى ، فى حين يقول ربّ العزّة فى محكم كتابه (١) : ﴿إنّ الشّرك لظلمٌ عظيم ﴾ .

والعجيب فى أمر هؤلاء المشركين أنّههم يزكّون أنفسهم ، وكما افترى القوم بشركهم إثمًا عظيمًا ، افتروا ، بتزكيتهم أنفسهم ، على اللّه تعالى كذبًا.

وإلى هذه المعانى أشارت :

الآيتان رقم (٤٩ , ٥٠)

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾

تبدأ أولى الآيتين الكريمتين بما بدأت به أولى آيات القسم : ﴿ ألم تر ﴾ والخطاب ابتداءً للمصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم ، ويشمل وراء ذلك كلّ فردٍ من أفراد الأمّة المحمّديّة . والمعنى : ألم تر بقلبك ، وتنظر بعقلك ، وتبصر بنور البصيرة . ألم تر إلى هؤلاء المنحرفين عن سواء السّبيل الّذين يزكّون أنفسهم ، ويزعمون طهارتها من الذّنوب ، وبراءتها من العيوب ، ألم تعجب

(١) سورة لقمان ١٣ .

إليهم وهم الّذين يرتكبون الذّنوب ، ويأتون العيوب ، حينما يزعمون أنّ الجنّة خاصّةٌ بهم ، مقصورةٌ عليهم ، وأنّهم أبناء اللّه تعالى وأحبّاؤه ، وأنّهم لن تمسّهم النّار إلاّ أيّامًا معدودات . لقد سجّل القرآن الكريم على اليهود والنّصارى تزكيتهم أنفسهم والشّهادة لها بدخول الجنّة ، بينما الّذى يشهد بالطّهارة والتّزكية هو اللّه تعالى وحده لا شريك له ، الّذى يزكّى من يشاء . جاء فى سورة المائدة[١] قوله تعالى : ﴿ وقالت اليهود والنّصارى نحن أبناء اللّه وأحبّاؤه . قل فَلِم يعذّبكم بذنوبكم بل أنتم بشرٌ ممّن خلق يغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء . وللّه ملك السّماوات والأرض وما بينهما وإليه المصير ﴾ وجاء فى سورة البقرة[٢] قوله تعالى : ﴿ وقالوا لن يدخل الجنّة إلاّ من كان هودًا أو نصارى . تلك أمانيّهم . قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين . بلى من أسلم وجهه للّه وهو محسنٌ فله أجره عند ربّه ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ﴾ . وقال تعالى[٣] : ﴿ وقالوا لن تمسّنا النّار إلاّ أيّامًا معدودة . قل أتّخذتم عند اللّه عهدًا فلن يخلف اللّه عهده أم تقولون على اللّه ما لا تعلمون. بلى من كسب سيّئةً وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النّار هم فيها خالدون . والّذين آمنوا وعملوا الصّالحات أولئك أصحاب الجنّة هم فيها خالدون ﴾ . وقال تعالى[٤] : ﴿ فلا تزكّوا أنفسكم هو أعلم بمن اتّقى ﴾ .

وإنّ هذا القول الّذى تختم به الآية الكريمة : ﴿ ولا يظلمون فتيلا ﴾ يثبت عدل الذّات العليّة المطلق من ناحية ، فالموازين قسط ، ولا مكان لأدنى صور الظّلم بحذف حسنة أو إضافة سيّئة ، ولا موضع لأبسط صور الظّلم ولو كان فى وزن الفتيل الّتى تكون فى شقّ النّواة والّتى لا وزن لها ، ويثبت هذا

(١) الآية ١٨ .

(٢) الآية ١١١ ، ١١٢ .

(٣) سورة البقرة ٨٠ ـ ٨٢ .

(٤) سورة النّجم ٣٢ .

القول من ناحيةٍ أخرى اضطراب موازين البشر واختلال مقاييسهم .

وكما أرشد القرآن الكريم إلى وجه الصّواب ، أرشدت السّنّة المطّهرة المبيّنة للقرآن الكريم . فى صحيح مسلم عن المقداد بن الأسود قال : أَمَرَنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أن احثوا فى وجوه المدّاحين التّراب . وفى الصّحيحين أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم سمع رجلاً يثنى على رجلٍ فقال : ويحك قطعت عنق صاحبك ثمّ قال : إن كان أحدكم مادحًا صاحبه لا محالة فليقل : أحسبه كذا ، ولا يزكّى على اللّه أحدًا [١] . وروى الإمام أحمد أنّ معاوية قلّما كان يحدّث عن النّبىّ صلّى اللّه عليه وسلّم . قال : وكان قلّما يكاد أن يدع يوم الجمعة هؤلاء الكلمات أن يحدّث بهنّ عن النّبىّ صلّى اللّه عليه وسلّم يقول : من يرد اللّه به خيرًا يفقهه فى الدّين ، وإنّ هذا المال حلوٌ خضر ، فمن يأخذه بحقّه يبارك له فيه ، وإيّاكم والتّمادح فإنّه الذّبح [٢] .

وبعد أن نفت الآية الكريمة أدنى الظّلم عن الذّات العليّة أثبتت الآية التّالية افتراء القوم الكذب على اللّه تعالى بعد أن ثبت للقوم من ذى قبل افتراؤهم الإثم العظيم بسبب إشراكهم مع اللّه تعالى غيره . إنّ هذه الآية الكريمة التّالية تخاطب المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم ابتداءً وتخاطب بعد ذلك كلّ فرد من أفراد الأمّة الإسلاميّة تبعًا وذلك فى القول : ﴿ انظر كيف يفترون على اللّه الكذب ﴾ إنّ القوم حينما لا يكون عندهم علمٌ ولا هدىً ولا كتابٌ منير يكونون كاذبين . وحينما يهرفون فيما لا يعرفون من أمورٍ تتعلّق بالدّين وبالعقيدة يكونون مفترين على اللّه تعالى الكذب . وكفى بافتراء الكذب على اللّه تعالى إثمًا مبينًا ، وذنبًا عظيمًا . وقد قال تعالى [٣] : ﴿ إنّ الّذين يفترون

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٥١١ .

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٥١٢ .

(٣) سورة النّحل ١١٦ ، ١١٧ .

على اللّه الكذب لا يفلحون . متاعٌ قليلٌ ولهم عذابٌ أليم ﴾ . وقال تعالى[١]: ﴿ إنّما يفترى الكذب الّذين لا يؤمنون بآيات اللّه أولئك هم الكاذبون ﴾ .

وهؤلاء الّذين أوتوا نصيبًا من الكتاب تجاوزوا كلّ حدّ حينما زعموا أنّ مشركى مكّة أهدى من المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم ومن المؤمنين سبيلاً . وقد أشارت إلى ذلك وإلى طرد اللّه تعالى لهم من رحمته .

الآيتان رقم (٥١ , ٥٢)

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾

من البيّن وجه التّشابه بين الآية الكريمة وأولى آيات القسم فى القول : ﴿ألم تر إلى الّذين أوتوا نصيبًا من الكتاب ﴾ ومن البيّن كذلك مجىء هذا القول : « ألم تر » للمرّة الثّالثة فى هذا القسم . وبالإضافة إلى ما يفيده هذا القول : « ألم تر » من تنبيهٍ إلى استحقاق هذا الأمر أن يستحوذ على الاهتمام وأن يُنْظَرَ فيه ويتدبَّر ، هو يفيد أنّ هذا الأمر يستحقّ أن يتعجّب منه لغرابته وخروجه عن المألوف وحدود الاستقامة . وحينما نقف على سبب النّزول يتأكّد التّعجّب من هؤلاء الّذين آتاهم اللّه تعالى حظًّا من التّوراة ويصرّون على مخالفة تعاليمها .

جاء فى سبب النّزول[٢] أنّ وفدًا من يهود بنى النّضير أتى قريشًا من

---

(١) سورة النّحل ١٠٥ .

(٢) انظر مثلاً تفسير الطّبرىّ ٥/ ٨٦ وتفسير ابن كثير ١/ ٥١٣ وأسباب النّزول للواحدى ١٨٧ .

أجل تهييجها على حرب المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم والمسلمين ، وذلك الوفد هو الّذى حزّب الأحزاب وساقهم إلى غزوة الخندق . وبما أنّ اليهود أهل الكتاب فقد وجد أهل مكّة ومشركو قريشٍ رغبةً جامحةً فى معرفة رأى أهل الكتاب فى الصّراع الدّائر بين مشركى قريش وبين المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم والمسلمين ، مَنْ مِنَ الفريقين حالفه الصّواب ومن من الفريقين خالفه . لقد بيّن مشركو قريش أبعاد الصّراع بينهم وبين المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم، وأنّ مشركى مكّة هم جيران الحرم ، وسدنة البيت العتيق ، والقائمون على خدمة الحجيج وإكرامه ، وهم الّذين يفكّون العانى ، ويرعون حقوق الجار ، ويكرمون الضّيف ، ويستمسكون بدين الآباء والأجداد وعبادة الأصنام، فهل مشركو مكّة هم الّذين خالفهم الصّواب أم محمدّ صلّى اللّه عليه وسلّم الّذى فارق الأصنام ودعا إلى دين التّوحيد وعبادة اللّه تعالى وحده لا شريك له فى طرائق لم نعرفها ولم نألفها ؟

لقد كان جواب بنى إسرائيل على سؤال مشركى مكّة مثيرًا للعجب حقًّا. فمع أنّهم أهل كتاب ، ويجدون نعت المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم فى التّوراة ، وهم مأمورون باتّباعه عليه الصّلاة والسّلام ، وهم يعرفونه صلّى اللّه عليه وسلّم كما يعرفون أبناءهم ، هم يقولون بكلّ جراءةٍ على اللّه تعالى وكلّ وقاحة : إنّ مشركى مكّة عبدة الأوثان أهدى من الّذين آمنوا ووحّدوا اللّه تعالى واتّبعوا محمّدًا صلّى اللّه عليه وسلّم سبيلا !

والآية الكريمة تضع بين يدى قول بنى إسرائيل هذا ، السّببَ الّذى حملهم على هذا الكذب والافتراء على اللّه تعالى ، وتضع خلف هذا القول ، وذلك فى الآية الكريمة التّالية ، الجزاءَ الّذى يستحقّه أولئك القائلون الكذب عن عمدٍ وسبق إصرار . قال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الّذين أوتوا نصيبًا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطّاغوت ويقولون للّذين كفروا هؤلاء أهدى من الّذين آمنوا

سبيلا ﴾ قال عمر رضى اللّه عنه : الجبت السّحر والطّاغوت الشّيطان[١] . وقال الإمام مالك : الطّاغوت هو كلّ ما يعبد من دون اللّه عزّ وجل[٢] ، وقد جاء فى سورة البقرة[٣]عن بنى إسرائيل قوله تعالى : ﴿ ولمّا جاءهم رسولٌ من عند اللّه مصدّقٌ لما معهم نبذ فريقٌ من الّذين أوتوا الكتاب كتاب اللّه وراء ظهورهم كأنّهم لا يعلمون . واتّبعوا ما تتلو الشّياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكنّ الشّياطين كفروا يعلّمون النّاس السّحر وما أُنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ﴾ .

وممّا يلفت الانتباه بشأن جواب اليهود على سؤال المشركين مجيء اسم الإشارة : « هؤلاء » فى القول : ﴿ ويقولون للّذين كفروا هؤلاء أهدى من الّذين آمنوا سبيلاً ﴾ والمعروف أنّ ها للتّنبيه وأولاء اسم إشارة للجمع . إنّ هذا القول : « هؤلاء » يفيد المعنى الّذى يفيده اسم الضّمير أنتم لو كان الجواب : ويقولون للّذين كفروا أنتم أهدى . . . . ويضيف إليه جديداً . أمّا الجديد الّذى يضيفه « هؤلاء » فهو أنّه يفيد أنّ جواب بنى إسرائيل على سؤال المشركين كان أمام الملأ وفى محفل ، وأنّ بنى إسرائيل لا يقفون عند الجواب على السّؤال إنّما يتجاوزون ذلك إلى مخاطبة الملأ والإعلان فى المحفل بأنّ هؤلاء السّائلين الّذين يقفون آنذاك أمام الملأ هم أهدى سبيلاً من محمّد صلّى اللّه عليه وسلّم ومن المؤمنين : ﴿ كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذبًا ﴾ والمعروف أنّ اسم الإشارة « هؤلاء » يشار به للجمع فى حال القرب .

وقد استحّق كافرو أهل الكتاب وكاذبوهم أن يطردهم اللّه تعالى من رحمته ، وذلك فى الآية الكريمة التّالية الّتى تبدأ باسم الإشارة الّذى يجعل أولئك الكاذبين بعيداً بين يدى إبعادهم من رحمة اللّه تعالى ، وذلك فى الآية الكريمة التّالية . قال تعالى : ﴿ أولئك الّذين لعنهم اللّه ومن يلعن اللّه فلن

(١) تفسير الطّبرىّ ٥/ ٨٣ وتفسير ابن كثير ١/ ٥١٢ .
(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٥١٢ .
(٣) الآية ١٠١ ، ١٠٢ .

تجد له نصيراً ﴾ .

والحقيقة أنّا نتبيّن البعد بهؤلاء المفترين على اللّه تعالى الكذب فى ثلاثة مواضع فى الآية الكريمة .

الموضع الأوّل اسم الإشارة « أولئك » الّذى يشير إلى البعد .

الموضع الثانى اللّعن بمعنى الإبعاد من رحمة اللّه تعالى والطّرد .

الموضع الثالث اللّفظ : « نصيرا » وتفسير ذلك أنّ « نصيرا » يمثّل أبعد النّتائج وآخرها وأهمّها إذ إنّه يرتبط بالنّصر المنفيّ هنا . وحينما يُنفى النّصر يثبت الخِذلان والهزيمة . والمعروف أنّ نفى النّصر أو ثبوت الهزيمة يسبق كلاً منهما درجات أو أحوال فلا تأييد ثمّة ولا عون ، ولا مساعدة ولا مشاركة ولا ولاء وهكذا . وكأنّ أبعد النّتائج فى حقّ كافرى اليهود وأسوأها وهى اللّعن بمعنى الطّرد من رحمة اللّه تعالى والإبعاد ، رشّح للقفز إلى أبعد مظاهر الخِذلان وأسوئها ألا وهى الهزيمة ، وهيّأ لتجاوز كلّ المراحل بين يدى ثبوت الهزيمة أو نفى النّصر . قال تعالى : ﴿ أولئك الّذين لعنهم اللّه ومن يلعن اللّه فلن تجد له نصيراً ﴾ .

وما الّذى يحمل بنى إسرائيل على الكذب على اللّه تعالى بالزّعم أنّ مشركى مكّة أهدى سبيلاً من أمّة محمّد بن عبد اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم المسلمة للّه ربّ العالمين . ألأن بنى إسرائيل لهم نصيبٌ فى ملك هذا الكون وقد أخَذَ من هذا النّصيب محمدّ بن عبد اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وأمّته عليه الصّلاة والسّلام فبنو إسرائيل بزعمهم أنّ المشركين أهدى سبيلاً من المؤمنين إنّما يطالبون فى الحقيقة بحقّ سلبهم المسلمون إيّاه وجحدوهم ذلك الحقّ ؟ أم أنّ ذلك الكذب على اللّه تعالى وعلى حبيبه المصطفى صلّى اللّه عليه وسلم والمؤمنين ضربٌ من حسد بنى إسرائيل للمصطفى صلّى اللّه عليه وسلم على نعمة الرّسالة ، ولأمّة الإسلام على نعمة حمل هذه الرّسالة .

إنّ الآيات الكريمات الثّلاث التّاليات تجيب على السّؤالين ، وتبيّن الطبيعة

الملتوية للقوم وهذه هى :

الآيـة رقم (٥٣)

قال تعالى :

أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾

إنّ أول ما يلفت النّظر بشأن الآية الكريمة الأولى : « أم لهم نصيبٌ من الملك فإذن لا يؤتون النّاس نقيرا » لفظة « نقيرا » ذات العلاقة بالنّخلة التى يعرف كلٌّ من اليهود وسكّان المدينة المنوّرة كلّ دقائقها ، لأنّ بيئة المدينة المنوّرة مشهورة بزراعة النخيل . والنّقير عبارةٌ عن النقطة الّتى فى ظهر النّواة والنّكتة والنُّقرة الّتى فى وسط الظهر(١) ، ومن البيّن أنّها من الصّغر للدّرجة الّتى لا تكاد تتّسع لشىء بل للدّرجة الّتى لا تكاد تبين معها . ومعنى الآية الكريمة : بل ألهم(٢) وهم المفترون على اللّه تعالى الكذب ، الظّالمون عباد اللّه تعالى ، نصيبٌ من الملك ، وحظٌّ فى هذا الكون ، وشَىْءٌ فى هذا الوجود فهم حريصون على حقّهم ، مستمسكون به وبخيلون وشحيحون . وبما أنّ الملكوت بيد اللّه تعالى وحده لا شريك له ، والملك كلّه لمالك الملك الواحد القهّار ، فمعنى ذلك أنّ السّؤال فى الآية الكريمة بقصد الإنكار على بنى إسرائيل جوابهم السّابق المضلّل ، وافتراءهم على اللّه تعالى ، الكذب وفسادخائلهم، وخبث طويّاتهم ،لدرجة الشّحّ على عباد اللّه تعالى ، والحرص على حرمانهم

(١) انظر مثلاً معجم مقاييس اللّغة « نقر » ٥/ ٤٦٩ وتفسير الطّبرىّ ٥/ ٨٦ ، ٨٧ وتفسير ابن كثير ١/ ٥١٣ .

(٢) انظر تفسير ابن عطيّة ٤/ ١٠٢ والجلالين .

حقوقهم الّتى أوجبها اللّه تعالى لهم ، والاجتهاد فى سبيل الاستحواذ لأنفسهم بالحلال وبالحرام على كلّ خير ، وصرفه عن غيرهم . والدّليل على شحّ القوم على الخير أنّهم لو كان لهم فى هذا الكون الواسع حظٌّ ونصيب ، وينبغى أن يكون كبيراً بسبب سعة هذا الكون ، فإنّهم لن يعطوا النّاس ، كلّ النّاس ، وبخاصّة المسلمون ، شيئًا منه ولو كان من التّفاهة للدّرجة الّتى يملأ تلك النّقطة الصّغيرة فى ظهر النّواة . إنّ تلك الكمّيّة الّتى لا حجم لها ولا وزن يشحّ بها بنو إسرائيل على كلّ النّاس فكيف بما وراء هذه الكمّيّة التّافهة الّتى تتجاوز النّقير كيلاً والقطمير أو الفتيل وزنًا . وقد قال تعالى(١) : ﴿ قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربّى إذا لأمسكتم خشية الإنفاق . وكان الإنسان قتورًا ﴾.

والحقيقة أنّ لفظة « نقيرًا » الّتى عرفنا أنّها النّقطة الصّغيرة فى وسط ظهر النّواة تذكّرنا بلفظة « فتيلاً » الّتى مرّت بنا فى هذا القسم فى قوله تعالى : ﴿ألم تر إلى الّذين يُزكّون أنفسهم بل اللّه يزكّى من يشاء ولا يظلمون فتيلاً ﴾ وقد عرفنا أنّ الفتيل عبارةٌ عمّا هو مفتولٌ فى شقّ النّواة . وإنّ كلاً من اللّفظتين يذكّرنا بالقطمير بمعنى القشرة الرّقيقةالّتى تغطّى النّواة . وقد جاء ذكر القطمير فى قوله تعالى من سورة فاطر(٢) : ﴿ ذلكم اللّه ربّكم له الملك والّذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ﴾ .

وإنّه بالنّظر إلى استعمال آيتى سورة النّساء لكلٍّ من لفظتى فتيل ونقير يتبيّن أنّ لفظة « فتيل » استعملت فى مجال الوزن ، لأنّ المقصود إثبات كامل العدل للذّات العليّة ونفى أدنى الظّلم ولو كان وزن الفتيل الّذى لا يكاد يكون له وزن . كما يتبيّن أنّ لفظة « نقير » استعملت فى مجال الكيل ، لأنّ المقصود إثبات شحّ بنى إسرائيل ونفى إعطاء النّاس أدنى شىء ولو كان ذلك الشّىء من التّفاهة للدّرجة الّتى يملأ النّقير ، وهو المكيال الّذى لا يكاد يتّسع

(١) سورة الإسراء ١٠٠ .

(٢) سورة فاطر ١٣ .

لشىء .

ونحن فى غنىً عن القول إنّ نفى الظّلم يقترن به الوزن ، وإنّ إثبات الشّحّ يقترن به الكيل . إنّ استعمال الجزء من النّواة الّذى يتمشّى مع الوزن ومع الكيل من مظاهر إعجاز هذا الكتاب العزيز الّذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد .

وهكذا تبيّن من الاستفهام الإنكارىّ فى الآية الكريمة : ﴿ أم لهم نصيبٌ من الملك فإذًا لا يؤتون النّاس نقيرًا ﴾ أنّ بنى إسرائيل لا يملكون شيئًا فى هذا الكون ، ومع ذلك هم يحرصون على منع أدنى خيرٍ أن يصل إلى النّاس . وإنّ هذا الحرص على منع الخير من الوصول إلى النّاس يدفع إلى سؤال فطرىّ مفاده : وما الباعث لبنى إسرائيل على تجاوز البخل إلى الشّح ، والحرص على منع النّاس حقوقهم ، وعلى صرف الخير لهم وحدهم بالحقّ وبالباطل ، وعلى الحصول على المال بالحلال وبالحرام ؟ إنّ الآية الكريمة التّالية تسأل وتجيب فإلى :

الآية رقم (٥٤)

قال تعالى : أَمْ

يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾

يقول ابن عطيّة[1] : « عُرْف « أمْ » أن تُعْطف بعد استفهام متقدّم كقولك : أقام زيدٌ أم عمرو ؟ فإذا وردت ولم يتقدّمها استفهامٌ فمذهب سيبويه أنّها مضمّنةٌ معنى الإضراب عن الكلام الأوّل والقطع عنه ، وهى مضمّنةٌ مع ذلك معنى الاستفهام ، فهى بمعنى بل مع ألف الاستفهام ، كقول العرب : إنّها لإبل أم شاء ؟ فالتقدير عنه سيبويه : إنّها لإبلٌ بل أهى شاء ؟ » وقد تبيّنّا أنّ معنى القول فى الآية الكريمة السّابقة : ﴿ أم لهم نصيبٌ من الملك ﴾ بل

(١) تفسير ابن عطيّة ٤/١٠١ .

ألهم نصيبٌ من الملك ؟[١] وبناءً على ذلك تكون أم فى قوله تعالى : ﴿ أم يحسدون النّاس على ما آتاهم اللّه من فضله ﴾ على بابها لأنّ الاستفهام المقدّر: بل ألهم قد تقدّمها فى الآية الكريمة السّابقة[٢].

وهكذا يتبيّن أنّ « أم » الّتى بدأت الآية الكريمة بها كما بدأت بها سابقتها تفيد الاستفهام كما تفيد الإضراب فهى بمعنى « بل » ومن ألطف ما يمكن أن يقال هنا هو أنّ الإضراب هنا مؤكّد وليس مفردًا فقط ، لأنّ أم بمعنى بل ، ولأنّ نصيب القوم من الملك الّذى أشارت إليه الآية الكريمة السّابقة ليس موجودًا أساسًا ، فالإضراب الأوّل جاء من جهة السّكوت عن المعنى السّابق وإن كان موجودًا ، والإضراب الآخر جاء من جهة كون المعنى السّابق ليس موجودًا أصلاً .

فإذا تحوّلنا إلى المعنى الّذى تضمّنته هذه الآية الكريمة التّالية وهو الحسد تبيّنا بنصّ القرآن الكريم أنّه موجودٌ فعلاً . وبناءً على ذلك تكون أم بمعنى الاستفهام وبمعنى بل فثمّة إضرابٌ وسكوتٌ عن الملك معنىً وحسًا ، وثمّة إثباتٌ للحسد . قال تعالى[٣] : ﴿ ودّ كثيرٌ من أهل الكتاب لو يردّونكم من بعد إيمانكم كفّارًا حسدًا من عند أنفسهم من بعد ما تبيّن لهم الحقّ فاعفوا واصفحوا حتّى يأتى اللّه بأمره . إنّ اللّه على كلّ شىءٍ قدير ﴾ .

وهكذا يتبيّن أنّ بنى إسرائيل يحسدون النّاس على ما أعطاهم اللّه تعالى من واسع فضله . أمّا هؤلاء النّاس فهم محمّد بن عبد اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم الّذى اصطفاه اللّه تعالى بنعمة الرّسالة ، والعرب الّذين أكرمهم اللّه تعالى الّذين اصطفاهم اللّه تعالى باصطفاء محمّد صلّى اللّه عليه وسلّم من بين ظهرانيهم ، وليس من بنى إسرائيل الّذين ثبت أنّ همّتهم أضعف من أن تحمل رسالةً أو تتصدّى لمشقّة . وقد اقترن باصطفاء اللّه تعالى محمّدًا صلّى اللّه عليه وسلّم من العرب ، اصطفاء اللّه تعالى العرب بحمل هذه الأمانة وبكونهم مادّة

(١) تفسير ابن عطيّة ٤/ ١٠٢ والجلالين .

(٢) انظر تفسير ابن عطيّة ٤/ ١٠٣ .

(٣) سورة البقرة ١٠٩ .

دين الإسلام الأولى ونواته .

وهل محمّد بن عبد اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أوّل المرسلين ؟ لا إنّه آخر المرسلين .

وهل العرب أوّل الأمم الّتى يصطفى اللّه تعالى منها رسولاً ؟ لا إنّهم آخر الأمم ، فليس محمّدٌ صلّى اللّه عليه وسلّم بدعًا من الرّسل ، وليس العرب بدعًا من الأمم ، فعلى سبيل المثال قد آتى اللّه سبحانه وتعالى آل إبراهيم ، وأعطى أهل إبراهيم وأتباعه على دينه الكتب السّماويّة ، والسّنّة المطهرّة الّتى ليست مقروءةً فى كتاب ، والملك العظيم . أمّا الكتب السّماويّة فكصحف إبراهيم ، وتوراة موسى ، وزبور داود ، وإنجيل عيسى عليهم السّلام . وأمّا الملك العظيم فكملك سليمان بن داود عليهما السّلام ، وقد جاء فى سورة ص[1] قوله تعالى : ﴿ ولقد فتنّا سليمان وألقينا على كرسيّه جسدًا ثمّ أناب . قال ربّ اغفر لى وهب لى ملكًا لا ينبغى لأحد من بعدى إنّك أنت الوهّاب . فسخّرنا له الرّيح تجرى بأمره رخاءً حيث أصاب . والشّياطين كلّ بنّاء وغوّاص . وآخرين مقرّنين فى الأصفاد . هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب . وإنّ له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ .

وبما أنّ محمّدًا صلّى اللّه عليه وسلّم ليس بدعًا من الرّسل وبما أنّ العرب ليسوا بدعًا من الأمم فلِمَ يخصّهم بنو إسرائيل بالحسد ؟ لأنّ بنى إسرائيل أشحّةٌ على الخير . إنّهم حينما أكرمهم اللّه تعالى بكون كلّ الأنبياء بعد إبراهيم عليه السّلام وقبل خاتمهم وأشرفهم محمدّ بن عبد اللّه صلوات اللّه وسلامه عليهم أجمعين من ذرّيّة إسحاق بن إبراهيم عليهما السّلام ، فهم جميعًا من بنى إسرائيل ، وكانوا على علمٍ بأنّ النّبىّ الخاتم قد دنا وقت ظهوره ، إنّهم حينما أكرمهم اللّه تعالى بذلك ظنّوا أنّ النّبىّ الخاتم من ذرّيّة إسحاق بن إبراهيم عليهما السّلام ، أى من بنى إسرائيل ، وشاء اللّه تعالى أن يكون النّبىّ الخاتم محمّد بن عبد اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم من ذرّيّة إسماعيل عليه السّلام، أبى العرب ، ابن إبراهيم عليه السّلام أبى الأنبياء . إنّ بنى إسرائيل

(١) الآيات ٣٤ ـ ٤٠ .

الأشحّة على الخير حسدوا محمّدًا صلّى اللّه عليه وسلّم لأنّه من ذرّيّة إسماعيل عليه السّلام وليس من ذرّيّة إسحاق عليه السّلام ، وحسدوا العرب لأنّهم من ذرّيّة إسماعيل عليه السّلام وليسوا من ذرّيّة إسحاق عليه السلام .

ولماذا خصّ بنو إسرائيل محمّدًا صلّى اللّه عليه وسلّم والعرب بالحسد ؟ لأنّ نفوسهم مريضة ، وإنّ الآية الكريمة التّالية تؤكّد مرض نفوس فريقٍ من بنى إسرائيل حينما حسد بعضهم بعضًا وبغى بعضهم على بعض فإلى :

الآية رقم (٥٥)

قال تعالى :

فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا

إنّ من بنى إسرائيل من آمن بهذا الفضل من اللّه تعالى ، وقدره حقّ قدره ، وقام بما وجب عليه من شكرٍ للّه تعالى على نعمه وآلائه ، ومنهم من كفر بهذا الفضل وجحده ، وعصى اللّه تعالى ، وكفر بنعمه جلّ وعلا ، وتجاوز مرحلة الكفر فى ذاته إلى الصّدّ عن سبيل اللّه تعالى ، ونشر الكفر بين عباد اللّه تعالى وطرد الإيمان . لقد كان ثمّة تجاوزٌ لمرحلة الكفر الّتى تقابل الإيمان المنصوص عليه فى صدر الآية الكريمة إلى المرحلة الأشدّ سوءًا وهى مرحلة الصّدّ عن سبيل اللّه تعالى ، لذا لم يجىء فى الآية الكريمة : ومنهم من كفر به إنّما جاء : ﴿ فمنهم من آمن به ومنهم من صدّ عنه ﴾ وفى ذلك تنبيهٌ إلى أنّ للقوم تاريخًا عريقًا فى الكفر والصّدّ عن سبيل اللّه تعالى ، وإلى أنّ هؤلاء المفترين على اللّه تعالى الكذب الحاسدين للمصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم وللمسلمين إنّما هم من سلالة أولئك الكافرين الصّادّين عن سبيل اللّه تعالى .

وإنّ فى الآية الكريمة أكثر من حذف وأكثر من كلامٍ مسكوتٍ عنه لأنّه مفهومٌ ضمنًا . ويصحّ أن يكون أصل الكلام : فمن بنى إسرائيل من آمن بهذا الفضل ، ومنهم من كفر به ، وصدّ الآخرين عنه ، ومن هؤلاء أيضًا ،

الكافرون بمحمّد صلّى اللّه عليه وسلّم ، الصّادون عنه ، المستحقّون عذاب النّار ﴿ وكفى بجنّم سعيراً ﴾ واللّه تعالى أعلم . ومعنى الجزئيّة الأخيرة : «وحسبكم أيّها المكذّبون بما أنزلت على محمّد نبيّ ورسولى بجهنّم سعيراً ، يعنى بنار جهنّم تُسْعر عليكم أى توقد عليكم . وقيل : سعيراً أصله مسعوراً من سُعِّرت تُسَعَّر فهى مسعورة ، كما قال اللّه : وإذا الجحيم سعِّرت ، ولكنّها صرفت إلى فعيل كما قيل : كفٌّ خضيب ولحيةٌ دهين ، بمعنى مخضوبة ومدهونة . والسّعير الوقود»[1] . وإذا كان فى القول : ﴿ فمنهم مناٰمن به ومنهم منصدّ عنه ﴾ تجاوزٌ للكافرين، لأن فى ذكر الصّدّ عن سبيل اللّه تعالى، ذكرا ضمنياً لهؤلاء الكافرين ، لأنّ الذى يصدّ عن سبيل اللّه تعالى هو الكافر وحده ، فإن الآية الكريمة التّالية تتحدث عن هؤلاء الكافرين فإلى

الآية رقم (٥٦)

قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾

إنّ كافرى بنى إسرائيل هم أولى الفئات الّتى يشملها القول : ﴿ إنّ الّذين كفروا بآياتنا ﴾ فقد كفر بنو إسرائيل المعاصرون للمصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم فى مجموعهم بآيات اللّه تعالى وهى آيات القرآن الكريم ، كما كفر بها كافرو العرب ومنافقوهم ، وفرق ما بين الكافرين والمنافقين ، كما هو معروف ، أنّ الأوّلين يعلنون كفرهم ، وأنّ الأخيرين يضمرونه . ويلفت النظر بشأن القول هنا : ﴿سوف نصليهم ناراً﴾ أنّه يستعمل فى الدّلالة على المستقبل «سوف » بينما تستعمل الآية الكريمة التّالية فى حقّ المؤمنين السّين : ﴿سندخلهم جنّات ﴾ ومن البيّن أنّ سوف للمستقبل البعيد إذ إنّها حرف استقبالٍ أطول زمنًا من السّين الّتى تدلّ على المستقبل القريب . ويصحّ أن يفهم

(١) تفسير الطّبرىّ ٥/ ٩٠ .

من « سوف » فى حقّ الكافرين أنّ المراد تنبيه الكافرين إلى وجوب أخذ الحذر، وعدم الغفلة ، والاستفادة من فترة الامهال هذه ، بأن يعودوا إلى بارئهم جلّ وعلا ، وبألاّ يفهموا الإمهال إهمالاً ، وبأن يتوبوا إلى اللّه تعالى توبةً نصوحاً، ويعملوا الصّالحات .

أمّا إذا أصرّ الكافرون على كفرهم وسبَق إلى رُوعِهِمْ أنّ الإمهال إهمال فإنّ مآلهم إلى جهنّم وساءت مصيراً . وانظر إلى جملة « نصليهم » الّتى تستعملها الآية الكريمة دليلاً على طول العذاب وشدّته ، ودليلاً على أنّ المراد بالإلقاء فى النّار الإحراق وليس ما دون الإحراق . لننظر إلى ما تقوله اللّغة فى هذا المجال . جاء فى لسان العرب(١) : « وصَلَى اللَّحْمَ وغيره يَصْلِيه صَلْيًا شواه ، وصَلَيْتُه صَلْيًا مثالُ رميته رَمْيًا وأنا أُصليه صليًا إذا فعلتَ ذلك وأنت تريد أن تَشْوِيَه ، فإذا أردت أنّك تُلْقيه فيها إلقاءً كأنّك تريد الإحراقَ قلتَ أصلَيْته ، بالألف إصلاءً ، وكذلك صلّيتُه أصلّيه تصلية. التّهذيب : صَلَيتُ اللّحم ، بالتّخفيف ، على وجه الصّلاح معناه شويته ، فأمّا أصليته وصلّيته فعلى وجه الفساد والإحراق ، ومنه قوله : فسوف نُصْليه نارًا » .

وتختار الآية الكريمة من بين أجزاء جسد الكافر أشدّها إيلامًا ، واسرعها احتراقًا ، ألا وهى الجلود : ﴿ كلّما نَضِجَتْ جلودهم بدّلناهم جلودًا غيرها ليذوقوا العذاب ﴾ والثّابت علميًا أنّ الجلود أكثر أجزاء الجسد تأثّرًا بالنّار وأشدّها إحساسًا بالألم . وإنّ هذه الحقيقة العلميّة تنبّه عليها الآية الكريمة الّتى تقرّر أنّ تبديل جلود الكافرين يكون بعدد مرّات احتراقها بالنّار وبئس القرار . وتعيّن الآية الكريمة الغاية من هذا التّبديل : ﴿ ليذوقوا العذاب ﴾ .

وفى التّذييل : ﴿ إنّ اللّه كان عزيزًا حكيمًا ﴾ تأتى صفتان للذّات العليّة تشير أولاهما إلى العزّة وليدة القدرة . فاللّه سبحانه وتعالى هو العزيز فى ملكه وهو الّذى يعذّب الكافرين فى نار جهنّم بالكيفيّة الّتى بيّنتها الآية الكري،

(١) « صلا » وانظر مفردات الرّاغب الأصفهانىّ : « صلا » ٢٨٥ ومعجم مقاييس اللّغة « صلى » ٣ / ٣٠٠ .

وتشير أخرى الصّفتين إلى الحكمة : ﴿ إنّ اللّه كان عزيزًا حكيمًا ﴾ فاللّه سبحانه وتعالى هو الحكيم فى كلّ شىء ، ومن ذلك حكمته فى عذاب الكافرين بالنّار ، وحكمته فى ثواب المؤمنين بالجنّة ، وإلى المؤمنين أشارت الآية الكريمة التّالية فإلى :

الآية رقم (٥٧)

قال تعالى :

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ
لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾

نزّل اللّه سبحانه وتعالى أحسن الحديث كتابًا متشابهًا مثانى . ومن سمات هذا الكتاب المتشابه المثانى أن يثنّى فيه الحديث عن المعنى المغاير لسابقه المخالف له والمقابل . فإذا كان هنالك حديثٌ عن الكافرين كان هنا حديثٌ عن المؤمنين ، وهكذا الحال بشأن النّار والجنّة ، العقاب والثّواب ، الجحيم والنّعيم وما إلى ذلك .

والآية الكريمة لا تكتفى بالإيمان ، بل لا بدّ من إعطاء الدّليل الفعلىّ على الإيمان وهو عمل الصّالحات . وهؤلاء المؤمنون الّذين يعملون الصّالحات سيدخلهم ربّهم جنّات تجرى من تحتها أنواع الأنهار خالدين فيها . ويلفت النّظر بشأن المؤمنين استعمال السّين الدّالّة على المستقبل القريب فى حقّهم: «سندخلهم جنّات تجرى من تحتها الأنهار» وقد عرفنا أنّ سوف هى الّتى استعملت فى حقّ أصحاب الجحيم . وكأنّ استعمال السّين فى حق المؤمنين ضربٌ من البشارة بأنّ دخولهم الجنّة بإذن اللّه تعالى فى وقتٍ ليس بالبعيد .

والآية الكريمة تخلع أهمّ نعوت جنّات الدّنيا على جنّات الآخرة . وبعد أن نصّت على أهمّ مقوّمات الجنّة وهى الأنهار ، والمعروف أنّ جنّات الآخرة تتميّز بأنهارها المختلفة من ماءٍ ولبن وخمر وعسل ، نصّت على مقوّمين مهمّين

من مقوّماتها . الزّوجات والظّلّ الظليل .

جاء بشأن الزّوجات القول : ﴿ لهم فيها أزواجٌ مطهّرة ﴾ إنّ الزّوجات فى الجنّة مطهّراتٌ من كلّ قذى وأذى يخالط الزّوجات فى الدّنيا .

وجاء بشأن الظّلال القول : ﴿ وندخلهم ظلاً ظليلاً ﴾ إنّ من أهمّ مقوّمات جنّات الدّنيا الظّلال الوارفة . وفى سبيل تبيين ما يمتاز به الظّلّ الظّليل فى الجنّة نودّ أن نتبيّن الخطوط المتفاوتة من الجمال لظلال الدّنيا .

إنّ ثمّة فرقًا بين الظّلّ والفَيْء . إنّ الظّلّ يقال لكلّ موضع لم تصل إليه الشّمس ولا يقال الفَيْءُ إلاّ لما زال عنه الشمس ، وإنّ الظّلّ أعمّ من الفَيْء فإنّه يقال ظلّ اللّيل وظلّ الجنّة[1] ونستطيع أن نتبيّن مراحل الظّلّ بالنّظر إلى هاتين الآيتين الكريمتين من سورة الفرقان[2] قال تعالى : ﴿ ألم تر إلى ربّك كيف مدّ الظّلّ ولو شاء لجعله ساكنًا ثمّ جعلنا الشّمس عليه دليلاً . ثمّ قبضناه إلينا قبضًا يسيرًا ﴾ إنّ الظّلّ يبدو منذ انفجار عمود الصّبح واستطارة نوره فى الأفق، فإذا ظهرت الشّمس اقتصر الظّلّ على المواضع الّتى لا يصل إليها ضوء الشّمس ، ويظلّ الأمر كذلك حتّى يأتى وقت الزّوال وتتوسّط الشّمس كبد السّماء وتزول عن ذلك الوسط والكبد ، وبعد تلك الأثناء يقال فاء الظّلّ ، ولا يطلق الفَيْءُ إلاّ على الرّاجع منه[3] وإذا كان ظلّ أوّل النّهار يتّجه من الطّول إلى القصر ، فإنّ الفيء يتّجه من القصر إلى الطّول حتّى تغيب الشّمس، ويعمّ الظّلّ ، ثمّ يقبض الظّلّ قبضًا يسيرًا بحلول الظّلام .

إنّ هذا النّوع من الظّلّ هو أقرب أنواع الظّلّ .

فإذا صادف أن كان ذلك النّهار غائمًا فذلك معناه أنّ الظّلّ موصولٌ من طلوع الفجر إلى مغيب الشّفق . ومن البيّن أنّ حظّ هذا النّوع من الظّل موفورٌ

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانىّ « ظلل » ٣١٤ .

(٢) الآية ٤٥ ، ٤٦ .

(٣) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانىّ « فيأ » ٣٨٩ .

من الجمال والمتعة بأكثر من سابقه فى العادة .

وإنّ اتّصال الظّلّ بسبب الغمام ، قد يقترن به ضربٌ من الحرّ اللاّفح أو البرد القارس . وكى يكون الظّلّ ظليلاً ينبغى أن يتناغم ظاهره وباطنه ، فلا شمس ولا حرّ ولا قُرّ . ومن البيّن أنّ تحقّق هذا الانسجام بين ظاهر الظّلّ وباطنه ، أوّله وآخره ، ممّا يجعل حظّه من الجمال موفوراً بأكثر من سابقه . ومن البيّن كذلك أن تحقّق هذا النّوع من المتعة والجمال فى ظلال الدّنيا لا يتحقّق إلاّ فى النّادر ، أمّا فى الجنّة فالظّلّ ظليل والظّلّ ممدودٌ بنصّ القرآن الكريم .

ووراء كلّ هذه المعانى الجميلة المرتبطة بظلّ الجنّة الظّليل الممدود هنالك ملابساتٌ أخرى تضفى على الجمال جمالاً وعلى الجلال جلالاً . إنّ الظّلّ يُعبَّر به عن العزّة والمنعة وعن الرّفاهة . قال تعالى : ﴿ إن المتّقين فى ظلال﴾ أى فى عزّةٍ ومناع . ويقال : أظلّنى فلانٌ أى حرسنى وجعلنى فى ظلّه وعزّه ومناعته . وظلٌّ ظليلٌ فائض . وقوله : وندخلهم ظلاً ظليلاً ، كنايةٌ عن غَضارة العيش[1] .

وهكذا يتبيّن أنّ لفظ الظّلّ وفى أبسط معانيه يرتبط به النّعيم ، ويزداد هذا النّعيم وغضارة العيش بمقدار حظّ الظّلّ من متعلّقات الجمال وملابسات الجلال . وبما أنّ ظلّ الجنّة الظليل ، فريدٌ بابه ، ونسيجُ وَحْدِه ، ففى كلّ ذلك الإيماء إلى شىءٍ من نعيم الجنّة الّتى فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر .

نسأل اللّه تعالى العلىّ القدير أن يجعلنا من أهل الجنّة وأن يدخلنا ظلّها الظليل الممدود إنّه جلّ وعلا على كلّ شىء قدير . قال تعالى [2]: ﴿والّذين آمنوا واتّبعتهم ذريّتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريّتهم وما ألتناهم من عملهم من شىء كلّ امرىءٍ بما كسب رهين﴾.

---

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانىّ « ظلل » ٣١٤ .

(٢) سورة الطّور ٢١ .

(١٠)

الأمر بأداء الأمانة ، والحكم بما أنزل الله وبطاعة الرّسول وتبيين ثواب الطّالعُين

الآيات (٥٨ ـ ٧٠)

إِنَّ
ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ
ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا
بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى
ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ
تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾
أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ
وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ
وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ
ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ
ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ
صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا
قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ
إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا
فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ
أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا
لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ
جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ
لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ
حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟
فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن
دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ
بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن
لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾
وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم
مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ
أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ
بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾

دارت آيات القسم السّابق فى مجموعها حول أقوال بنى إسرائيل الغريبة، وأحوالهم العجيبة ، ممّا يعتبر كفراً بنعم اللّه تعالى ، وجحوداً لآلائه جلّ وعلا. وقد كان الحديث عن بعض مظاهر كفرهم موطّئاً للحديث عن الكافرين عموماً رعقابهم الأليم ، وعن المؤمنين ونعيمهم المقيم ، لأنّ من صفات القرآن الكريم المثانى أن يثنّى فيه الحديث عن المعنى ذاته وعن المعنى وخلافه . وقد كان الحديث عن المؤمنين فى آخر آيات القسم موطّئا للحديث عن المصطفى ﷺ الأسوة الحسنة ، وعن بعض صفات المؤمنين ، وبعض صفات المنافقين . لقد أمرت أولى آيات القسم الكريمة المصطفى ﷺ ابتداءً ، بأداء الأمانة والحكم بين النّاس بالعدل ، وإنّ كلّ فرد من أفراد الأمّة المحمّدية تبعٌ له ﷺ فى ذلك الأمر. وإنّ أوّل ما ائتمن اللّه تعالى عباده عليه إفراده جلّ وعلا بالعبادة الّتى تعرف عن طريق المرسلين . وقد أمر السّياق بعد ذلك العباد بطاعة اللّه تعالى وبطاعة رسوله ﷺ طاعة مطلقة ، وبطاعة أولى الأمر المأمورين بطاعة اللّه تعالى وبطاعة رسوله ﷺ فإن اختلفنا نحن المسلمين فى شئ رددناه إلى القرآن الكريم وإلى الرّسول ﷺ إن كان حيًّا وإلى سنّته عليه الصّلاة والسّلام إن كان ميّتًا .

إنّ الّذى يؤمن باللّه واليوم الآخر هو الّذى يفعل ذلك . ولمّا كان المنافقون يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ، فقد وصفهم السّياق بأنّهم يزعمون أنّهم آمنوا بالقرآن الكريم وبالكتب السّماويّة ، بدليل أنّهم يريدون أن يتحاكموا إلى الباطل الّذى أمروا أن يكفروا به استجابةً للشيطان الرّجيم . وحينما يُدْعَوْن إلي ما أنزل اللّه تعالى وإلى الرّسول ﷺ يصدّ المنافقون صدوداً . والعجيب فى أمر المنافقين أنّهم ساعة اليسر والطّمع يصدّون عنه ﷺ صدوداً ، أمّا ساعة العسر والجزع فإنّهم يجيئون إليه ﷺ ويحلفون باللّه العظيم أنّهم لم يتحاكموا إلى غيره عليه الصّلاة والسّلام إلا بقصد الإحسان ولمّ الشّمل والتّوفيق بين المتنازعين . وإنّ رحمة اللّه تعالى الّتى وسعت كلّ شئ تسع المنافقين وتأمره ﷺ بالإعراض عنهم ، وبوعظهم، وبالقول البليغ لهم . ويسلّى السّياق المصطفى

ﷺ ويقرّر أن اللّه سبحانه وتعالى لم يرسل رسولاً إلا ليطاع بإذن اللّه تعالى ، ويوجّه السّياق المنافقين إلى صحيح العمل بأنّ عليهم حينما يظلمون أنفسهم أن يجيئوا إلى المصطفى ﷺ فى أثناء حياته عليه الصّلاة والسّلام ، وأن يستغفروا اللّه تعالى. إنّهم لو فعلوا ذلك لاستغفر لهم الرّسول ﷺ ولوجدوا اللّه تعالى توّاباً رحيماً . وبشأن الأحكام الّتى لم يرض بها المنافقون تأتى الآية الكريمة المشتملة على القَسَم بربّ العزّة المبيّنة أنّ كلّ المسلمين وفيهم المنافقون لا يؤمنون حتّى يحكّموا المصطفى ﷺ فيما شجر بينهم من خلاف ، وأن تكون نفوسهم راضيةً تمام الرّضا بحكم المصطفي ﷺ وأن يسلّموا تسليما . أما أولئك المنافقون إخوان اليهود فلو أنّ اللّه تعالى اشترط لقبول توبتهم ما اشترطه جلّ وعلا لقبول توبة بنى إسرائيل بأن يقتل بعضهم بعضا، ولو أنّ اللّه تعالى كتب عليهم الهجرة ، ما فعل المنافقون ما كتب اللّه تعالى عليهم من قتلٍ وهجرة ، باستثناء القليل منهم الّذى تاب توبةً نصوحا . إنّ المطلوب من المنافقين شيءٌ أهون من القتل ومن الهجرة ، أن يستجيبوا لموعظة المصطفى ﷺ لهم. إنّهم لو فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم فى الدّين والدّنيا ، الآخرة والأولى، وكان أشدّ تثبيتًا لإيمانهم ، وتأكيداً لاعتقادهم ، ولآتاهم اللّه تعالى من لدنه أجراً عظيماً يتمثّل فى الجنة الّتى فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ولهداهم صراطاً مستقيماً فى الدّنيا والآخرة . إنّ الاستجابة لموعظة المصطفى ﷺ خطوةٌ ضروريةٌ بين يدى طاعة اللّه تعالى وطاعة رسوله المصطفى ﷺ، وإنّ ثواب من يطيع اللّه ورسوله أن يكون ﴿ مع الّذين أنعم اللّه عليهم من النّبيّين والصّدّيقين والشّهداء والصّالحين وحسن أولئك رفيقا . ذلك الفضل من اللّه وكفى باللّه عليما ﴾

الآية رقم (٥٨)

قال تعالى :

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾

سبب النّزول :

قال محمّد بن إسحاق فى غزوة الفتح : حدّثنى محمّد بن جعفر بن الزّبير بن عبد اللّه بن أبى ثور عن صفية بنت شيبة أنّ رسول اللّه ﷺ لمّا نزل بمكة واطمأن الناس خرج حتّى جاء إلى البيت فطاف به سبعاً على راحلته يستلم الرّكن بِمِحْجَن(١) فى يده ، فلمّا قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له فدخلها فوجد فيها حمامةً من عيدان فكسرها بيده ثمّ طرحها ، ثمّ وقف على باب الكعبة وقد استكن(٢) له النّاس فى المسجد . قال ابن إسحاق : فحدّثنى بعض أهل العلم أنّ رسول اللّه ﷺ قام على باب الكعبة فقال : لا إله إلاّ اللّه وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده . ألا كلُّ مأثُره(٣) أو دم أو مال يدّعى فهو تحت قدمىّ هاتين إلاّ سدانة البيت وسقاية الحاجّ . وذكر بقية الحديث فى خطبة النّبيّ ﷺ يومئذ إلى أن قال : ثمّ جلَس رسول اللّه ﷺ فى المسجد فقام إليه علي بن أبى طالب ومفتاح الكعبة فى يده فقال : يا رسول اللّه : اجمع لنا الحجابة مع

---

(١) المحجن : عود معوجّ الطرف ، يمسكه الراكب للبعير فى يده .

(٢) رواية السيرة : «وقد استكفّ له الناس» بمعنى استجمع من الكافّة وهى الجماعة .

(٣) المأثرة : الخصلة المحمودة التى تتوارث ويتحدّث بها الناس .

السّقاية صلّى اللّه عليك . فقال رسول اللّه ﷺ: أين عثمان بن طلحة ؟ فدعى له فقال له : هاك مفتاحك يا عثمان ، اليوم يوم بر[١] ووفاء[٢] عن ابن جريج قال : نزلت فى عثمان بن طلحة بن أبى طلحة ، قبض منه النّبيّ صلى اللّه عليه وسلم مفاتيح الكعبة ودخل بها البيت يوم الفتح فخرج وهو يتلو هذه الآية ، فدعا عثمان فدفع إليه المفتاح . قال : وقال عمر بن الخطاب : لمّا خرج رسول اللّه ﷺ وهو يتلو هذه الآية فداؤه أبى وأمّى ما سمعته يتلوها قبل ذلك[٣] وقال ﷺ : خذوها يا بنى أبى طلحة بأمانة اللّه ، لاينزعها منكم إلاّ ظالم ، وفى رواية : خذوها يا بني أبى طلحة خالدةً تالدة ، لا يأخذها منكم إلاّ ظالم[٤] وعثمان بن طلحة هذا أسلم في هدنة الحديبية ، وهاجر مع خالد ابن الوليد وشهد الفتح مع النّبيّ ﷺ فأعطاه مفتاح الكعبة . وفى الصّحيحين من حديث ابن عمر قال : دخل النّبيّ ص الكعبة ودخل معه بلال وعثمان بن طلحة وأسامة بن زيد . الحديث[٥] .

إنّ أوّل ما يلفت النّظر فى الآية الكريمة أنّها يجئ فيها القول : ﴿ إنّ اللّه يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين النّاس أن تحكموا بالعدل﴾ ولا يجئ فيها القول : إنّ اللّه يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها وأن تحكموا بالعدل . حقًّا إنّ هذا هو المعنى المقصود ولكنّ مجيء «إذا» فى الآية الكريمة المتضمّن معنى الشرط بشأن الحكم بين النّاس ، يفيد أنّ الأمانة شركة بين النّاس جميعاً وقد قال تعالى[٦] : ﴿إنّا عرضنا الأمانة على السّماوات والأرض والجبال

---

(١) هذه رواية السيرة النبوية لابن هشام . أما رواية تفسير ابن كثير فبتقديم الوفاء على البر : «اليوم يوم وفاء وبر» .

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٥١٥ والسيرة النبوية لابن هشام «حلبى» تصوير بيروت ٤/ ٥٤ وانظر أسباب النزول للواحدى ١٨٩ وتفسير الطبرى ٥/ ٩٢ وتفسير القرطبى ١٨٢٦ .

(٣) تفسير الطبرى ٥/ ٩٢ .

(٤) أسباب النزول للواحدى ١٨٩ .

(٥) الإصابة ٤/ ٤٦٠ .

(٦) سورة الأحزاب ٧٢ .

فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾ وليس كذلك الحكم بين النّاس من ولاية وقضاء وتحكيم وما إلى ذلك . إنّ الحكم بين النّاس مقصورٌ على فئة معيّنة من ذوى الحلّ والعقد خاصّة وأنّ لفظة النّاس هنا تشمل كلّ النّاس وفيهم غير المسلمين . إنّ العدل يجب أن يكون الغاية الّتى يتحرّاها كلّ حاكم . ومن البيّن أنّا حينما تبيّنّا العموم فى القول : ﴿ إنّ اللّه يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها ﴾ إنّما اعتمدنا القاعدة المشهورة بشأن سبب النّزول بأنّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السّبب ، وعليه فالأمربأداء الأمانة شامل لكلّ أمانة ابتداءً بما ائتمننا اللّه تعالى عليه من عبادته جلّ وعلا وحده لا شريك له .

وانظر إلى جملة «يأمر» التى لا تغنى غناءها أيّ جملة أخرى . إن اللّه سبحانه وتعالى الذى له وحده لا شريك له الأمر هو الّذى يأمرنا بأن نؤدّى الأمانات إلى أهلها وأن نعيدها إلى أصحابها .

ودليلاً على أهمية أداء الأمانة وإقامة العدل بين النّاس يجئ القول: ﴿ إنّ اللّه نعمّا يعظكم به . إنّ اللّه كان سميعاً بصيراً ﴾ : إنّ اللّه سبحانه وتعالى نعم شيئا[1] يعظكم به أداء الأمانة والحكم بين الناس بالعدل . وإنّ اللّه سبحانه وتعالى هو السّميع لكلّ قول ، البصير بكلّ نيّة وفعل ، بما فى ذلك القول والنيّة والفعل فى حقّ أداء الأمانة والحكم بين النّاس بالعدل .

واللّطيف فى حقّ أداء الأمانة المأمور به كلّ النّاس أنّ لها أهلاً مخصوصين، وفى حقّ الحكم الّذى له أهلٌ مخصوصون أنّ العدل ينبغى أن يشمل كلّ النّاس . فبشأن أداء الأمانة ثمّة عمومٌ وخصوص ، وبشأن الحكم بالعدل ثمة خصوصٌ وعموم. فما أوضح العدل بين أداء الأمانة والحكم بالعدل.

(١) انظر البحر المحيط ٢/ ٣٢٤ وانظر فى اختلاف القرّاء بشأن «نعمّا» تفسير القرطبيّ ١١٤٢ ، ١١٤٣.

وكيف تُؤَدّى الأمانة إلى أهلها وكيف يتمّ العدل فى الحكم بين النّاس ؟ عن طريق طاعة اللّه تعالى وطاعة رسوله ﷺ ابتداءً ، طاعة مطلقة . وإلى هذه الطّاعة أشارت الآية الكريمة التّالية فإلى :

الآية رقم (٥٩)

قال تعالى :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾

سبب النّزول :

قال الإمام أحمد : حدّثنا أبو معاوية عن الأعمش عن سعد بن عبيدة عن أبى عبد الرحمن السُّلمى عن على قال : بعث رسول اللّه ﷺ سريّةً واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار ، فلما خرجوا وجد عليهم فى شئ قال : فقال لهم: أليس قد أمركم رسول اللّه ﷺ أن تطيعونى ؟ قالوا : بلى . قال : فاجمعوا لى حطبا ، ثمّ دعا بنار فأضرمها فيه ، ثمّ قال : عزمت عليكم لتدخلنّها ، قال: فقال لهم شابٌّ منهم إنّما فررتم إلى رسول اللّه ﷺ من النّار فلا تعجلوا حتى تلقوا رسول اللّه ﷺ ، فإن أمركم أن تدخلوها فادخلوها . قال : فرجعوا إلى رسول اللّه ﷺ فأخبروه فقال لهم : لو دخلتموها ما خرجتم منها أبداً ، إنّما الطّاعة فى المعروف . أخرجاه فى الصّحيحين[1] وروى البخارى عن سعيد بن جبير عن ابن عبّاس قال: نزلت فى عبد اللّه بن حذافة بن قيس بن عدىّ إذ بعثه رسول اللّه ﷺ فى سريّة، وهكذا أخرجه بقيّة الجماعة إلا ابن ماجة . وقال الترمذى : حديثٌ حسنٌ غريب[2].

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٥١٦ .

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٥١٦ ، وانظر أساب النزول للواحدى ١٩٠ وصحيح البخارى ٦/ ٥٧.

تأمر الآية الكريمة الّذين آمنوا أن يطيعوا اللّه تعالى طاعةً مطلقةً وأن يطيعوا الرسول محمّداً ﷺ طاعة مطلقة : ﴿ يا أيها الّذين آمنوا أطيعوا اللّه وأطيعوا الرّسول ﴾ ويلاحظ مجئ جملة أطيعوا بشأن الأمر بطاعة اللّه تعالى والأمر بطاعة الرّسول ﷺ فقد كان فى الإمكان الاستغناء عن تكرار جملة أطيعوا فيقال : يا أيّها الّذين آمنوا أطيعوا اللّه والرّسول . وإنّ فى تكرار جملة أطيعوا تنبيهاً إلى أنّ طاعة المصطفى ﷺ إنّما هى طاعةٌ مطلقة وتأتى فى التّرتيب بعد طاعة اللّه تعالى مباشرة .

وتبدو قيمة تكرار جملة أطيعوا فى حقّه ﷺ حينما نتبيّن أنّ هذه الجملة لم تأت للمرة الثّالثة بشأن أولى الأمر . قال تعالى : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا أطيعوا اللّه وأطيعوا الرّسول وأولى الأمر منكم ﴾ ويفهم من عدم مجئ جملة أطيعوا فى حقّ أولى الأمر أنّهم مأمورون بطاعة اللّه تعالى وبطاعة رسوله ﷺ، وأنّ الأمر بطاعتهم إنما يكون فى حال طاعتهم للّه تعالى ولرسوله ﷺ ، وفى هذه الحال تكون طاعتهم من طاعة اللّه تعالى وطاعة رسوله ﷺ ، لأنّهم حينما يطيعون اللّه تعالى ويطيعون رسوله عليه الصّلاة والسّلام ، لا يأمرون إلاّ بطاعة، ولا ينهون إلاّ عن معصية ، كما بيّنها القرآن الكريم وبيّنتها سنّة المصطفى ﷺ . وما أكثر الأحاديث النبويّة الشريفة فى هذا المعنى .

روى أبو داود عن عبد اللّه بن عمر عن رسول اللّه ﷺ قال : السّمع والطّاعة على المرء المسلم فيما أحبّ وكره ، مالم يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة . وأخرجاه/الصّحيحين[1] وعن عبادة بن الصّامت قال : بايعنا رسول اللّه ﷺ على السّمع والطّاعة فى منشطنا ومكرهنا ، وعسرنا ويسرنا ، وأثرةٍ علينا، وألا ننازع الأمر أهله . قال : إلاّ أن تروا كفر بَواحاً[2] عندكم فيه من اللّه برهان . أخرجاه . وفى الحديث الآخر عن أنس أنّ رسول اللّه ﷺ قال : اسمعوا وأطيعوا وإن أمّر عليكم عبدٌ حبشىّ كأنّ رأسه زبيبة .

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٥١٧ .

(٢) بواحاً ، بفتح الباء : جهاراً ظاهراً مكشوفا .

رواه البخاريّ . وعن أبى هريرة رضى اللّه عنه قال : أوصانى خليلى أن أسمع وأطيع وإن كان عبداً حبشيّاً مجدوع الأطراف . رواه مسلم . وعن أمّ الحصين أنّها سمعت رسول اللّه ﷺ يخطب فى حجّة الوداع يقول : ولو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب اللّه اسمعوا له وأطيعوا . رواه مسلم(١) .

والعجيب فى أمر فئة من الفئات أنّها تلوى عنق هذه الجزئيّة الكريمة فتذهب إلى أنّ عدم المجئ جملة أطيعوا للمرة الثّالثة فى حقّ أولى الأمر أنّ أولى الأمر ، والمراد بهم فى اعتقادهم إمامهم ، يرقى إلى أعلى الدّرجات الّتى يجب معها طاعته هو الآخر طاعةً مطلقة ، لأنّ الآية الكريمة إنّما تعنيه ، ولأنّ هذا الإمام من السّلالة الطّاهرة الطّيّبة الّتى تفهم وحدها تأويل القرآن الكريم . ودليلهم على أنّ الآية الكريمة تعنيه أنّ جملة أطيعوا لم تجئ للمرة الثّالثة !

إنّ هذا المعنى هو الذى يسعى المشاركون فى اللّقاءات الفكرية إلى إشاعته وترسيخه ، مع أنّ معنى الجزئيّة الكريمة واضحٌ تمام الوضوح فى ضوء الأحاديث النّبويّة الشريفة المبيّنة للقرآن الكريم .

والعجيب فى أمر هؤلاء أنّك حينما تناقش آراءهم الّتى أذاعوها لتوّهم ، لاتكاد تجدهم يستقرّون على معنى ، إنّما تتبيّن أنّهم يريدون أن يوافقهم كلّ أحد ، وألاّ يناقشهم أحد فيما يذهبون إليه من كون الجزئيّة الكريمة إنّما تعنى إمامهم المعصوم حسب زعمهم ، والّذى يحرصون على رفعه بعيداً بعيداً ، ولا حول ولا قوّة إلاّ باللّه العليّ العظيم . ونسأل اللّه سبحانه وتعالى أن يهدينا جميعاً سواء السبيل إنّه سميعٌ قريب .

فإن تنازعنا نحن المسلمين فى شىء ، واختلفنا فى أمرٍ من الأمور وجب علينا بأمر الآية الكريمة أن نردّه إلى اللّه تعالى ، أي إلى كتاب اللّه تعالى ، وإلى الرّسول محمّد ص إن كان حيّاً ، وإلى سنّته المطهّرة أن كان ميتًا ، لأنها

(١) تفسير ابن كثير ١/٥١٧ .

هى المبيّنة للقرآن الكريم . وقد قال تعالى[١] : ﴿ وأنزلنا إليك الذّكر لتبيّن للنّاس ما نُزّل إليهم ولعلهم يتفكّرون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ فإن تنازعتم فى شيءٍ فردّوه إلى اللّه والرّسول إن كنتم تؤمنون باللّه واليوم الآخر ﴾ قال مجاهد وغير واحد من السّلف : أي إلى كتاب اللّه وسنّة رسوله[٢] ويقول الطّبرى[٣] : « وأمّا قوله : والرّسول ، فإنّه يقول : فإن لم تجدوا إلى علم ذلك فى كتاب اللّه سبيلاً فارتادوا معرفة ذلك أيضاً من عند الرّسول إن كان حيّاً وإن كان ميتاً فمن سنّته » .

إنّ الّذين يردّون ما تنازعوا فيه إلى كتاب اللّه تعالى وإلى سنّة رسوله ﷺ، هم الّذين يؤمنون باللّه تعالى وباليوم الآخر بنصّ الآية الكريمة . وحينما يكون الإيمان باللّه ابتداءً ، ويكون الإيمان باليوم الآخر انتهاءً ، يكون الإيمان بما بيّن هذين النّوعين من الإيمان أمراً طبيعيًا ، وهى أركان الإيمان التى يكمل بها الإيمان بإذن اللّه تعالى .

وفى التذييل : ﴿ ذلك خيرٌ وأحسن تأويلاً ﴾ تقرّر الآية الكريمة أن الرّجوع فى حال النّزاع إلى كتاب اللّه تعالى وإلى سنّته ﷺ خيرٌ فى الحال ، وأحسن فى العاقبة والمآل . خيرٌ فى الحال لأنّ فيه صلاح الدّين ، وخيرٌ فى المآل لأنّ دخول الجنة بفضل اللّه تعالى ، ثمرة طاعة اللّه تعالى وطاعة رسوله ﷺ ، وطاعة أولى الأمر ، إذا أطاعوا الله تعالى وأطاعوا رسوله ﷺ . فى الحديث الصّحيح المتّفق على صحّته عن أبى هريرة عن رسول اللّه ﷺ أنه قال : من أطاعنى فقد أطاع اللّه ، ومن عصانى فقد عصى اللّه ، ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى ، ومن عصى أميرى فقد عصانى[٤] .

وحينما لا يكون فى حال التّنازع رجوع إلى اللّه تعالى وإلى رسوله ﷺ يكون هنالك تحاكمٌ إلى الطّاغوت والعياذ باللّه تعالى وإلى ذلك أشارت .

---

(١) سورة النحل : ٤٤ .
(٢) تفسير ابن كثير ١/٥١٨ .
(٣) تفسير الطّبرىّ ٥/٩٥ .
(٤) تفسير ابن كثير ١/٥١٨ .

الآيات رقم (٦٠ - ٦١)

قال تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾

من سمات المؤمنين المتّقين أنّهم : ﴿ الّذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصّلاة وممّا رزقناهم ينفقون . والّذين يؤمنون بما أُنْزل إليك وما أنزل من قبلك﴾[1] وحينما تشير أولى الآيات الكريمات إلى أولئك الّذين يزعمون أنّهم آمنوا بما أُنْزل إلى الرّسول الكريم ﷺ من قرآن مجيد ، وما أُنْزل إلى المرسلين السّابقين من كتب سماويّة ، يكون معنى ذلك أنّنا بصدد أناس يدّعون أنّهم يؤمنون بالقرآن الكريم والكتب السّماويّة السّابقة ، لأنّ الزّعم حكاية قول يكون مظنّةً للكذب ، ولهذا جاء فى القرآن فى كلّ موضع ذُمّ القائلون به[2] والّذين يزعمون أنّهم يؤمنون بالقرآن الكريم وبالكتب السّماويّة السّابقة ، وهم فى الحقيقة لا يؤمنون ، هم المنافقون ، ولهذا نتبيّن الآية الكريمة تبدأ بالقول : «ألم تر» الّذى يفيد التّعجّب من زعم هؤلاء الّذين أعمى اللّه تعالى بصائرهم ، والمعنى : ألم تر أيّها الرّسول العظيم بقلبك ، ألم تبصر أيّها النبيّ الكريم بنور بصيرتك ، ألم تعجب أيّها الرّءوف الرّحيم لأولئك الّذين يزعمون قائلين إنّهم يؤمنون بالقرآن الكريم وبالكتب السّماويّة السّابقة بينما هم فى الحقيقة لا يؤمنون . لماذا ؟ لأنّهم لا يريدون أن يتحاكموا إلى القرآن الكريم ولا إليك أيّها الرّسول الكريم وأنت الّذى تحكم بما أراك اللّه تعالى ، وإنّما يريدون أن

(١) سورة البقرة : ٣ ، ٤ .

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانى «زعم» ٢١٣ .

يتحاكموا إلى الطّاغوت وإلى الباطل[1] وإلى الشيّطان الرّجيم والنّفس الأمّارة بالسّوء وحكم الجاهليّة .

وحينما لا يريد أولئك المدّعون للإيمان أن يتحاكموا إلى اللّه تعالى وإلى الرّسول الكريم ﷺ ، يكونون قد استزلّهم الشيّطان الرّجيم . وحينما لا يريدون أن يتحاكموا إلى اللّه تعالى وإلى رسوله الكريم ، يكونون راغبين فى التّحاكم إلى الطّاغوت ، ويكونون بذلك أداةً طيّعة فى يد الشيّطان الرّجيم الّذى استزلّهم حينما لم يريدوا أن يتحاكموا إلى اللّه تعالى ، والّذى أضلّهم حينما أرادوا أن يتحاكموا إلى الطّاغوت والذى يريد أن يضلّهم ضلالاً بعيداً ، لا يستطيعون معه أن يعودوا أدراجهم إلى الصّراط المستقيم ، أو أن يهتدوا إلى الأمام سبيلا . قال تعالى : ﴿ألم تر إلى الّذين يزعمون أنّهم آمنوا بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطّاغوت وقد أُمروا أن يكفروا به ويريد الشيّطان أن يضلّهم ضلالاً بعيداً ﴾ ومعروفٌ أن صيغة المضارع تفيد الاستمرار .

والآية الكريمة التّالية تؤكّد إصرارهم على الضّلالة وعلى الاستمساك بسبيل الغَواية . قال تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل اللّه وإلى الرّسول رأيت المنافقين يصدّون عنك صدوداً ﴾ .

وأوّل ما يلفت الانتباه أنّ الآية الكريمة يجئ فيها القول : «وإذا قيل لهم)) ممّا هو دليلٌ على كون الكلام موصولاً بالآية الكريمة السّابقة ، فالزّاعمون فى الآية الكريمة السّابقة هم الّذين يقال لهم تعالوا فى هذه الآية الكريمة التّالية ، ثمّ يجئ فى الآية الكريمة القول : «رأيت المنافقين» بذكر لفظ المنافقين بصريح اللّفظ ولا يكتفى باسم الضّمير فلا يقال : رأيتهم . وفى ذكر لفظ المنافقين صريحاً دليل على أنّ الّذين نزلت فيهم الآيات الكريمات هم المنافقون أساساً ، ووراء ذلك فالعبرة كما هو معروف بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب . ومع أنّ

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٥١٩ .

ثمّة اختلافاً بين العلماء فى سبب النّزول[١] فإن ابن كثير أوجز هذه الأسباب وبيّن رأيه السّديد فيها . يقول رحمه اللّه رحمةً واسعة[٢] : ذكر فى سبب نزول هذه الآية « ﴿ ألم تر إلى الّذين يزعمون . . . الآية ﴾» أنّها فى رجل من الأنصار ورجل من اليهود تخاصما ، فجعل اليهودىّ يقول : بينى وبينك محمّد وذاك يقول : بينى وبينك كعب بن الأشرف «اليهودى» وقيل فى جماعة من المنافقين ممّن أظهروا الإسلام ، أرادوا أن يتحاكموا إلى حكّام الجاهلية . وقيل غير ذلك . والآية أعمّ من ذلك كلّه فإنّها ذامّة لمن عدل عن الكتاب والسنّة وتحاكموا إلى ما سواهما من الباطل ، وهو المراد بالطّاغوت هنا، ولهذا قال : ﴿ يريدون أن يتحاكموا إلى الطّاغوت ﴾ . . . إلى آخرها» ومن البيّن التّرابط الوثيق بين الآيتين الكريمتين . وقد جاء فى بعض روايات أسباب النزول[٣] أنّ الآية الكريمة نزلت مع آيات كريمات حتّى الخامسة والسّتّين .

وانظر إلى الدّرس القرآنى فى أدب الدّعوة والأخلاق وذلك باستعمال جملة «تعالوا» فى مخاطبة هؤلاء المعرضين عن المصطفى ﷺ. إنّ جملة «تعالوا» فى الأساس تطلق عندما يريد الدّاعى فى مكانه العالى من مدعوّه فى مكانه المنخفض أن يترك مكانه إلى مكان الدّاعى . وبسبب كثرة الاستعمال أصبحت جملة «تعال» بمعنى هلمّ وأقبِلْ ، وليس من الضرورى أن يكون الدّاعي فى المكان العالى . وبما أنّ اللّغة العربية لغة اشتقاقيّة وتدلّ اللّفظة المشتقّة على المعنى الاصطلاحى وعلى معنى الحروف الأصليّة الّتى يجب أن يتضمنّها اللّفظ المشتق فإنّ جملة «تعالوا» تظلّ دائماً قادرةً على أداء معنيين اثنين ، الإقبال والارتقاء . ومن البيّن أنّ المؤمنين المتّقين الدّاعين إنّما يريدون للمنافقين أن يعلوا على درك النفاق وسفاسفه .

---

(١) انظر هنا تفسير الطبرى ٥/٩٧ وأسباب النزول للواحدى ١٩١ - ١٩٤ وتفسير القرطبى ١٨٣٣ .

(٢) تفسير ابن كثير ١/٥١٩ .

(٣) أسباب النزول للواحدى ١٩٢ .

وكيف يعلو المنافقون إلى مستوى المؤمنين الدّاعين ؟ أن يؤمنوا حقًّا بما أنزل اللّه تعالى على محمّد بن عبد اللّه ﷺ من كتاب مصدّق لما بين يديه من الكتاب ومهيمن عليه ، وبخاصة فى مجال الأحكام . وإنّما كان ميدان الأحكام المحَكّ الّذى يعرف به المؤمن من المنافق ، بسبب غلبة احتمال الاصطدام بين حكم اللّه تعالى وحكم رسوله ﷺ ، وبين هوى الإنسان ومصلحته الشخصيّة. إنّ الإيمان حينما يكون صادقاً يكون الرّضا التّام بحكم اللّه تعالى وحكم رسوله ﷺ ويكون هوى المؤمن تبعاً لما جاء به الرّسول ﷺ من ربّه جلّ وعلا .

وحينما يصرّ المنافق على زعمه ونفاقه ، يكون موقفه سيّئاً من الدعوة الكريمة الموجّهة إليه من المؤمن بأن يعلو إلى مستوى الإيمان بما أنزل اللّه على رسوله ص . ويتجلّى ذلك الموقف السّيّئ فى صدّه عن المصطفى ﷺ صدودا .

والّذى يلفت النّظر فى القول : ﴿رأيت المنافقين يصدّون عنك صدودا﴾ أمران اثنان. أحدهما المصدر صدودا، ومعروفٌ دور المصدر فى تأكيد المعنى، وآخرهما يتعلّق بجملة «يصدّون» ذاتها .إنّ المتأمّل لهذه الآية الكريمة الأولى -مثلاً- من سورة محمّد ﷺ : ﴿ الّذين كفروا وصدّوا عن سبيل اللّه أضلّ أعمالهم﴾ يفهم أنّ الكافرين لم يكتفوا بالكفر، إنّما تجاوزوا ذلك إلى محاولة نشر الكفر وذلك بصدّهم الآخرين عن سبيل اللّه تعالى وعن الدّخول فى حظيرة الإيمان . فما الّذى يلمحه المتأمّل لقوله عزّ من قائل فى حقّ المنافقين فى الآية الكريمة : ﴿ رأيت المنافقين يصدّون عنك صدودا﴾ إنّه يلمح أنّ هذا القول وإن كان يفيد أنّ المنافقين يُعْرِضون عن المصطفى ﷺ إعراضاً ، ويصدّون هم أنفسهم عنه عليه الصّلاة والسّلام صدودا ، فإنّه يظلّ عالقاً به المعنى الآخر من كون المنافقين الصّادّين عنه ﷺ لا يقفون عند صدّهم أنفسهم عن المصطفى ﷺ إنّما يتجاوزون ذلك المستوى من الصّدّ إلى صدّ الآخرين عن المصطفى ﷺ ، إن لم يكن حسّاً فمعنى ، إن لم يكن فعلاً فَمُنى.

وإذا كان المنافقون ساعة الاختيار يصدّون عنه ﷺ صدوداً ،فهل يصدّون

عنه ﷺ ساعة الاضطرار صدوداً مؤكّدا ؟ هل يصدّون عنه ﷺ صدوداً مجرّدا ؟ أم أنّهم يلجأون إليه ﷺ اضطراراً ؟ الآيتان الكريمتان التّاليتان تجيبان على هذه الأسئلة وتبيّنان أفعال المنافقين وأقوالهم وموقف المصطفى ﷺ منهم. وهاتان هما.

الآيتان رقم (٦٢ ، ٦٣)

قال تعالى :

فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا
قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ
إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا
فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ
أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾

تسأل أولى الآيتين الكريمتين عن حال أولئك المنافقين الّذين يصدّون عن المصطفى ﷺ صدوداً ، ويعرضون عنه إعراضاً ساعة اليسر ، تسأل عن حال أولئك المنافقين ساعة الشّدّة والعسر ، وحين تصيبهم مصيبةٌ بسبب ما قدّمت أيديهم من ذنوب واقترفوا من سيّئات . أيكون موقفهم ساعة العسر الصّدود والإعراض عن المصطفى ﷺ كما كان ساعة اليسر ؟ أم أنّ لهم موقفاً آخر ؟ إنّ موقفهم ساعة العسر يختلف كلّ الاختلاف عنه ساعة اليسر . فما معنى «ثمّ» وما معنى «جاءوك» فى القول : ﴿فكيف إذا أصابتهم مصيبةٌ بما قدّمت أيديهم ثمّ جاءوك يحلفون باللّه﴾ ؟

من المعروف أنّ « ثمّ » حرف عطف يدلّ على التّرتيب مع التّراخى . ومن المعروف أنّ جملة « جاء » لا تستعمل فى القرآن الكريم إلاّ دليلاً على القرب الزّمانىّ أو المكانىّ أو النفسىّ . فكأن حرف العطف « ثمّ » الّذى يدلّ على التّرتيب مع التّراخى ، والّذى يشير بالضّرورة إلى فترة زمنيّة ما ، كأنّ حرف

العطف «ثمّ» يشير إلى الصّراع النّفسىّ الّذى عاشه أولئك المنافقون طَوال الفترة الّتى تجرّعوا خلالها مرارة التّحوّل من الصّدّ عن المصطفى ﷺ صدوداً ، إلى الإقبال عليه ص بالضّرورة إقبالاً . وممّا يقوّى من ذلك الصّراع النّفسىّ ، ويزيد من مرارة التّحوّل من النّقيض إلى النّقيض، مجئ جملة « جاءوك » خطابا للمصطفى ﷺ دليلاً على اضطرار أولئك المنافقين للمجيء إليه ﷺ ، وكونهم قريبين كلّ القرب ، حتّى إنّهم ليكلّمونه عليه الصّلاة والسلام شفاهاً ووجهاً لوجه .

وماذا قال المنافقون للمصطفى ﷺ ؟ بما أنّ ظاهر المنافقين يخالف باطنهم، وبما أنّ القول ظاهرٌ بطبعه ، فقد كان هذا القول الظّاهر منسجماً شكلاً مع إيمانهم الظّاهر. إنّهم يعتذرون فى أقوى صور الاعتذار عن عدم رضاهم بحكم رسول اللّه ﷺ وعن التّحاكم إلى الطّاغوت ! إنّهم يحلفون باللّه العظيم أنهم باحتكامهم إلى الطّاغوت وصدّهم عن المصطفى ﷺ صدوداً فى مجال القضاء إنّما أرادوا فقط الإحسان فى حقّ ذلك الشّأن ، والتوفيق بين الفريقين المتنازعين ، والإصلاح بين الجمعين المختصمين ، ورأب الصّدع ، ولمّ الشّمل . إنّ كل ذلك فى ظنّهم لا يعنى بحال من الأحوال أنّهم ليسوا مؤمنين بالقرآن الكريم ، أو أنّهم ليسوا مصدّقين لخير الأنام، أو أنّهم ليسوا راضين عمّا يصدر عنه ﷺ من أحكام .

ومن البيّن أنّ الفرق كبير والبون شاسع بين أقوال المنافقين الحلوة المعسولة وبين نيّاتهم السّيّئة وأفعالهم القبيحة. وإذا كان لسان حال الآية الكريمة يقول : ﴿واللّه يشهد إنّ المنافقين لكاذبون﴾[1] فإن الآية الكريمة التّالية تنطق بهذا المفهوم بلسان المقال .

قال تعالى : ﴿ أولئك الّذين يعلم اللّه ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا﴾

(١) سورة المنافقون : ١ .

إنّ المنافقين إذا كانوا آنذاك قريبين جسداً من المصطفى ﷺ بعيدين عنه روحاً فإنّهم بعيدون من اللّه تعالى مطرودون من رحمته جلّ وعلا ملعونون ما داموا منافقين . وإنّ لاسم الإشارة الدّالّ على البعد : «أولئك» كبير دورٍ فى الإيحاء بمعانى البعد المختلفة من اللّه تعالى فى حقّ المنافقين .

وإنّ هذه الآية الكريمة الّتى تبدأ باسم الإشارة الدّالّ على البعد «أولئك» تذكّرنا بالآية الكريمة الثّانية والخمسين فى السورة الكريمة الّتى تتحدّث عن كافرى أهل الكتاب وتبدأ باسم الإشارة ذاته قال تعالى : ﴿ أولئك الّذين لعنهم اللّه ، ومن يلعن اللّهُ فلن تجد له نصيرا ﴾ وهكذا يشترك كلٌّ من المنافقين وكافرى أهل الكتاب فى البعد من رحمة اللّه تعالى . والمعروف بنصّ القرآن الكريم(١) أنّ المنافقين إخوان كافرى أهل الكتاب .

وأمام حَلِف المنافقين باللّه العظيم أنّهم لم يريدوا بالاحتكام إلى غير المصطفى ﷺ سوى الإحسان وصلاح ذات البين والتّوفيق بين المتنازعين ، وأمام رحمة اللّه تعالى الّتى وسعت كلّ شئ ، ومن مظاهر تلك الرّحمة الواسعة إمهال المنافقين فلعلّهم يعودون إلى جادّة الصّواب ، ويتوبون إلى اللّه تعالى توبةً نصوحاً تقرّر الآية الكريمة فى صدرها أنّ اللّه سبحانه وتعالى هو وَحْدَهُ الّذى يعلم حقيقة نوايا المنافقين. قال تعالى : ﴿ أولئك الّذين يعلم اللّه ما قلوبهم ﴾ ومن البيّن أنّ هذا القول يعنى أنّ المنافقين كاذبون فى أقوالهم وذلك فى ضوء صدّهم عن المصطفى ﷺ صدوداً حينما يُدْعَونَ إلى ما أنزل اللّه تعالى وإلى المصطفى ﷺ ، وفى ضوء صدّهم الآخرين عن الإسلام .

وإنّ هذا الأسلوب الحكيم فى الدّعوة إلى اللّه تعالى ، وإنّ هذا الدّرس القرآنى العظيم الّذى يُلْقَى على الدّعاة إلى اللّه تعالى ، خير موطّىء للمعانى السّامية الثّلاثة فى القول خطابًا للمصطفى ﷺ ﴿فأعرض عنهم وعظمهم وقل لهم فى أنفسهم قولاً بليغا﴾ وهو قولٌ يذكّرنا بقوله عزّ من قائل فى آداب

(١) سورة الحشر : ١١ .

الدّعوة إلى اللّه تعالى فى سورة النّحل(١) : ﴿ اُدْعُ إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالّتى هى أحسن ﴾ واللّطيف أننا فى كلٍّ من المناسبتين أمام ثلاثة معان، واللّطيف أنّ التّرتيب فى كلّ من المناسبتين يخضع لنظام بديع وتدرّج حكيم . ونستطيع أن نذهب إلى أنّ القول : ﴿ فأعرض عنهم ﴾ يتمشى مع القول : ﴿ ادع سبيل ربّك بالحكمة ﴾ وإلى أنّ القول : ﴿وعظهم﴾ يتمشى مع القول : ﴿ والموعظة الحسنة﴾ وإلى أنّ القول : ﴿ وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا﴾ يتمشى مع القول : ﴿وجادلهم بالّتى هى أحسن﴾.

فى ضوء هذه العلاقة الّتى تبيّنا بين المعانى الثلاثة فى كلّ من المناسبتين ، نستطيع أن نذهب إلى أنّ القول : « فأعرض عنهم » ثمرةٌ يانعةٌ لنصّ الآية الكريمة على أنّ اللّه سبحانه وتعالى يعلم وحده لا شريك له حقيقة نوايا هؤلاء الزّاعمين القائلين الحالفين . وبما أنّ علم اللّه تعالى وحده بحقيقة نوايا المنافقين، يعنى أنّ ربّ العزّة لمّا يشأ أن يكشف المنافقين للمصطفى ﷺ على حقيقتهم ، فإنّ الآية الكريمة ترشد المصطفى ﷺ إلى الخطوات الثلاث الّتى يتّبعها فى التّعامل مع المنافقين ، وهى ذات الخطوات الثلاث الّتى جاءت فى سورة النّحل المكّيّة ، علمًا بأنّ الآية الكريمة من سورة النّحل نزلت قبل الهجرة خلافاً للآيات الكريمات الثلاث التّاليات الّتى ختمت بها السّورة الكريمة فإنّها مدنيّة . وإن كان ثمّة من خلاف بين المعانى الثّلاثة فى كلّ من السّورتين الكريمتين ، سورة النّحل المكّيّة وسورة النّساء المدنيّة ، فإنّه الخلاف بين النّظريّة والتّطبيق . فلنسر مع كلٍّ من المعانى الثّلاثة من زاوية المقارنة بين النّظريّة والتّطبيق ، وبخاصّة بشأن المعنى الأوّل .

جاء فى سورة النّحل القول النّظرى : ﴿ ادع إلى سبيل ربّك بالحكمة ﴾ وجاء فى سورة النّساء التّطبيق العمليّ فى حقّ المنافقين : ﴿ فأعرض عنهم ﴾ والمراد بالإعراض عنهم تركهم ، وصرف النّظر عنهم ، وعدم مؤاخذتهم على

---

(١) الآية : ١٢٥ .

فلتات ألسنتهم ، وعدم معاقبتهم على ما يصدر عنهم من ردود فعل اضطرارية ثمرةً نكدةً لإحساسهم العميق بقهر الإسلام لهم ، وشعورهم الأليم بذلّتهم وقماءتهم. إنّ الإعراض عنهم هو العلاج النّاجع لهم ، وإنّ طويل الزّمن كفيلٌ بإن اللّه تعالى، باستلال سخائمهم . وكلّ ذلك قد كان وللّه الحمد والمنّة .

وإذا كان فى الإعراض عن القوم امتصاصٌ لأفعالهم غير السّويّة ، وأقوالهم غير القويمة ، فإنّ لكلّ من القلب والعقل حظّه الموفور .

ونودّ بين يدى الحديث عن المعنيين الآخرين المتشابهين فى سورتى النّحل والنّساء أن نقرّر أنّ آية سورة النّحل الّتى قلنا إنّها تمثّل الجانب النّظرى إنّما تخاطب كلّ داعية إلى اللّه تعالى ابتداءً بالمصطفى ﷺ . أمّا آية سورة النّساء فإنّ الخطاب فيها خاصٌّ بالمصطفى ﷺ الأسوة الحسنة للمسلمين فى كل زمان ومكان. وإنّ خصوصيّة الخطاب فى آية سورة النّساء مؤيّدة للقول بأنّها بمثابة التطبيق وقد قال تعالى(١) : ﴿ لقد كان لكم فى رسول اللّه أسوةٌ حسنةٌ لمن كان يرجو اللّه واليوم الآخر وذكر اللّه كثيرا ﴾.

وهكذا يتبيّن أنّ أمر المصطفى ﷺ فى القول : «وعظهم» معناه أنّ المطلوب من المصطفى ﷺ أنّ يخاطب القوم بما يلين قلوبهم ، ويرقّق أفئدتهم ويطّهر نفوسهم ، ويشرح صدورهم . وهذه هى مقوّمات الموعظة الحسنة الّتى نصّت عليها آية سورة النّحل . كما يتبيّن أنّ أمر المصطفى ص فى القول : ﴿وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا ﴾ معناه أنّ المطلوب من المصطفي ﷺ أن يخاطب القوم بقوله البليغ عليه الصّلاة والسّلام وجوامع كلمه الّتى ترضى كلّ عقل ، وتتسرّب منه إلى كلّ نفس ، وبذلك يستقيم العقل بعد الالتواء ، ويصحّ بعد الدّاء، ويستريح بعد العناء ، كما تستقيم النّفس السّوية السّليمة المطمئنّة الّتى عناها قوله عز من قائل(٢) : ﴿ يا أيّتها النّفس المطمئنّة . ارجعى إلى ربّك راضيةً مرضيّة . فادخلى فى عبادى . وادخلى جنّتى﴾ وهذه هى

(١) سورة الأحزاب : ٢١ .

(٢) سورة الفجر : ٢٧ - ٣٠ .

مقوّمات المجادلة بالّتى هى أحسن ، الّتى نصّت عليها آية سورة النّحل . واللّه تعالى أعلم .

وإذا كانت الآية الكريمة قد بيّنت أهمّ معالم منهج الدّعوة إلى اللّه تعالى للمصطفى ﷺ سيّد المرسلين وإمام المتّقين وأسوة المسلمين الحسنة فى كلّ ميادين الحياة ومن بينها ميدان الدّعوة إلى اللّه تعالى فإنّ الآية الكريمة التّالية تؤكّد هذه المعاني السّامية فإلى .

الآية رقم (٦٤)

قال تعالى :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ ﴾

فى صدر الآية الكريمة : ﴿ وما أرسلنا من رسولٍ إلاّ ليطاع بإذن اللّه ﴾ سلوةٌ للدّعاة وحثٌّ لهم على عمل ما يستطيعون ، فليس عليهم سوى إخلاص الدّعوة إلى اللّه تعالى فى ضوء قوله تعالى على لسان هود عليه السّلام فى سورة الأعراف(١) : ﴿ أبلّغكم رسالات ربىّ وأنا لكم ناصحٌ أمين ﴾ فشروط نجاح الدّعوة بإذن اللّه تعالى البلاغ والنّصح والأمانة . واللّه سبحانه وتعالى لا يكلّف نفساً إلاّ وسعها ، وقد تكفّل جلّ وعلا بهداية المجاهدين فى سبيله تعالى سبله جلّ وعلا . قال تعالى(٢) : ﴿ والّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا وإنّ اللّه لمع المحسنين ﴾ .

إنّ الجزئيّة الكريمة تقرّر أنّ اللّه سبحانه وتعالى ما أرسل رسولاً إلاّ ليطاع

---

(١) الآية : ٦٨ .

(٢) سورة العنكبوت : ٦٩ .